بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الفاتح الخاتم وعلى آله

مقدمة كافية في بابها
نافعة في لبابها

تحت عنوان

المطالب السبعة
من كتاب بغية المستفيد

تأليف:

سيدي العربي بن السائح الشرقي العمري التجاني

المطلب الأول

فِي بَيَانِ مَنْشَإِ عُلُومِ الطَّرِيقِ وَبَعْضِ مَا ٱخْتَصَّ بِهِ أَهْلُهَا مِنْ أَسْرَارِ الأَذْوَاقِ وَالتَّحْقِيقِ

لا يخفى أن هذا المطلب مما يهمُّ في هذا المقام تقديمه، ويتأكد في حق أهل الطريق تعلمه وتعليمه، إذ بالنظر فيه يرتقى المريد الموفق – إن شاء الله تعالى – عن حضيض الجمود على ظواهر الأنقال، إلى أوج النظر في أرواح المعاني ولباب علوم أهل الكمال.

ومن أدنى ما اشتمل عليه من الفوائد الجليلة، والعوائد الجميلة، أن يسلم الناظر فيه – بتوفيق الله تعالى – من أن ينكر من كلام أهل الله تعالى ما لم يبلغه علمه، أو يرد من إشارتهم ما لم يصل إليه فهمه. وناهيك بها من فائدة عظيمة، تضرب إليها أكباد الإبل وتتفانى في تحصيلها النفوس الزكية الكريمة.

وقد قال الشيخ أبو يزيد البسْطامي ﵁: "إذا رأيتم من يؤمن بكلام أهل الطريقة فاسألوه يَدْعُ لكم فإنه مجاب الدعوة". اهـ

وقال الشيخ محيي الدين ﵁: "أقل درجات أهل الطريق التسليم فيما لا تعلمه أنت، وأعلاها القطع بصدقه، وما عدا هذين المقامين فحرمان". اهـ

فلمثل هذه الفائدة المهمة، آثارنا أن يكون هذا المطلب أمام مطالب هذه المقدمة. فنقول والله المستعان، وعليه الاعتماد والتكلان.

اعلم أرشدني الله وإياك إلى مناهج التسليم والتصديق، وأذاقنا جميعا حلاوة الإيمان والتحقيق، أن العلم ينقسم بحسب ما يجب اعتباره هنا إلى قسمين: علم الظاهر، وعلم الباطن.

أما **علم الظاهر**: فالمراد به العلم الشرعي المفيد لما يلزم المكلف في أمر دينه عبادة ومعاملة. وهو يدور على التفسير والحديث. وعُدَّ منه النحو واللغة وأصول الفقه ونحوها على ما هو مبين في كتب أهل العلم.

وأما **علم الباطن**: فهو نوعان:

الأول : **علم المعاملة وحقيقته:** النظر في تصفية القلب وتهذيب النفس، باتقان الأخلاق الذميمة التي ذمها الشرع كالرياء والعجب وحب العلو والثناء والفخر، ليتصف بالأخلاق الحميدة كالإخلاص والشكر والصبر والزهد والتقوى والقناعة، ليصلح عند إحكامه لذلك لعمله بعلمه ليرث ما لم يعلم. فعلمه بلا عمل وسيلة بلا غاية، وعكسه جناية، واتفاقهما بالا ورع كلفة بلا أجرة. فأهم الأمور: زهد واستقامة لينتفع بعلمه وعمله.

وهذا النوع فرض عين في فتوى علماء الآخرة. فالمعرض عنه هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة، كما أن المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا.

وأما النوع الثاني فهو: **علم المكاشفة:** وهو نور يظهر في القلب عند تزكية النفس، فتظهر به المعاني المجملة، فتحصل لصاحبه المعرفة بالله تعالى وبأسمائه وصفاته وكتبه ورسله، وتنكشف له الأستار، عن مخبآت الأسرار. فافهم، وسلّم تسلم، ولا تكن من المنكرين، فتهلك مع الهالكين.

وهذا النوع هو الذي قال فيه بعض العارفين: "من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخشى عليه سوء الخاتمة وأدنى النصيب منه التصديق به، وتسليمه لأهله. والله تعالى أعلم" هــ، وانظر [إرشاد الساري].

ثم إن علم الباطن بنوعيه هو غاية العمل بعلم الظاهر وزبدته ونتيجته المقصودة منه وثمرته. وذلك أن العبد إذا عمل بالشريعة، ووقف عند حدودها المرسومة، بالمحافظة على شروطها المشروطة وآدابها المعلومة، يستضيء قلبه لا محالة من فضل الله تعالى بأنوار الإيمان، فينقدح له في الباطن مالا يكيف من غرائب العلوم والآداب وعجائب أسرار الحقائق والعرفان، فيطلع من علوم الشريعة وآدابها على مالا تحيط به الأفكار، ويتحقق من المعارف الإلهية والأسرار الربانية بما يحير أذهان النظار.

فحقيقة العالم بعلم الباطن ما أشار إليه الشيخ العارف بالله تعالى سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه في كتابه [اليواقيت والجواهر، في بيان عقائد الأكابر] ونصه في المبحث الثامن والأربعين منه: "اعلم أن حقيقة الصوفي: فقيه عمل بعلمه لا غير، فأورثه الله الاطلاع على دقائق الشريعة وأسرارها حتى صار مجتهدا في الطريق والأسرار كما هو شأن الأئمة المجتهدين في الفروع الشرعية. ولذلك شرَّعوا في الطريق واجبات ومحرمات، ومندوبات ومكروهات، وخلاف الأوْلى، كما استنبط المجتهدون نظير ذلك. وأبطلوا — أي مجتهدوا القوم — العبادات والعقود بالإخلال بما أوجبوه وشرطوه، أو بارتكاب ما حرموه. هذا شأنهم رضي الله تعالى عنهم. فما من أحد منهم حق له قدم الولاية إلا وهو مجتهد في الطريق ليس عنده تقليد إلا لما صرحت به الشريعة أو أجمع عليه الأمة. فمن ادعى مقام الكمال وهو مقلد لغيره فهو غير صادق". قال: "وقد سمعت سيدي عليا الخَوَّاص رحمه الله تعالى مرارا يقول: لا يكمل الرجل عندنا حتى يأخذ العلم من حيث أخذه المجتهدون" اهــ. وذكر نحوه في مقدمة [طبقاته].

ثم قال بعده: "لكن لا يُشْرِفُ على ذوق أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة إلا من تبحر في علم الشريعة حتى بلغ الغاية".

وقال في المقدمة أيضا، بعد أن حكى فيها نحو ما تقدم من أن علماء الطريق شرعوا في الطريق واجبات ومحرمات ومكروهات إلخ ما نصه: "وليس إيجاب مجتهد باجتهاده شيئا لم

تصرح الشريعة بوجوبه بأولى من إيجاب الولي حكما لم تصرح الشريعة بوجوبه، كما صرح بذلك اليافعي وغيره" اهـــ.

"وذلك لأن الكل مستنبط من نصوص الشريعة الطاهرة، ومقتبس من أنوار علومها الفاخرة. فكما أن الأئمة المجتهدين رضي الله تعالى عنهم استنبطوا من نصوص الشريعة مالا يحصى من الأحكام والوقائع، فكذلك هؤلاء علماء الباطن وأئمة الطريق استنبطوا أيضا من نصوص الشريعة أحكاما ووقائع في الباطن لا تحصى. والكل من طريق الاجتهاد الصحيح. فالاجتهاد واقع في دولة الباطن كما هو واقع في دولة الظاهر، ولا غنى بإحدى الدولتين عن الأخرى. فحقيقة بلا شريعة باطلة، وشريعة بالا حقيقة عاطلة أي ناقصة" أهـــ. وانظر [اليواقيت]

فالفريقان لا محالة يغترفان من عين واحدة.

وكما أنه لا يخرج شيء من علوم علماء الظاهر عن الشريعة فكذلك لا يخرج شئ من علوم علماء الباطن عنها. قال في مقدمة [الطبقات]: "وكيف تخرج علومهم – أي أهل الباطن – عن الشريعة، والشريعة هي وُصْلَتهم إلى الله تعالى في كل لحظة" اهـــ.

فقد بان لك أن علم الباطن زبدة علم الظاهر ونتيجة العمل به على الوجه الأكمل، من إيقاعه غير مشوب بالحظوظ والعلل.

ولهذا قال إمام الطائفة الجُنيد رضي الله تعالى عنه: "علمنا هذا مشيد على الكتاب والسنة" اهـــ. ردا على من توهم خروجه عنهما. ومعنى كونه مشيدا على الكتاب والسنة "أنه نتيجة عن العمل بهما" قاله الشيخ محيِ الدين رضي الله تعالى عنه. ثم قال: "وبذلك يفرق بينه وبين ما يظهر لأرباب النواميس الحِكَمِية": قال: "وهذا لا يعرفه إلا أصحاب الذوق". انتهى

قلت: وفي تعبير إمام الطائفة ﷺ بمُشيَّد إشارة إلى أنافة قدر علم الباطن وشفوف درجته من حيث إنه لُبُّ الشريعة وزبدها. وقد ذكر في [اليواقيت] ما يشهد له ونصه: "وقد رأيت في كتاب الرعاية للشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء بمصر في عصره ما نصه: كل الناس قعدوا على رسوم الشريعة وقعد الصوفية على قواعدها التي لا تزلزل" اهـــ.

ثم قال في [اليواقيت] بعده: "وقد بلغنا أنه – أي الشيخ عز الدين – كان يقول قبل ذلك: وهل ثَمَّ طريق للشريعة غيرُ ما بأيدينا من النقول، ثم يقول: من زعم أن ثَمَّ علما باطنا للشريعة غير ما بأيدينا من النقول فهو باطني يقارب الزنديق. فلما اجتمع بالشيخ أبي الحسن الشاذلي بمصر، وأخذ عنه صار يمدح طريق القوم كل المدح ويقول: "إنها طريق جمعت أخلاق المرسلين".

قال: "وكان حجة الإسلام الغزالي يقول مثل ما كان يقوله ابن عبد السلام. فلما اجتمع بالصوفية وذاق طريقهم صار يقول: ضيعنا عمرنا في البطالة أي لما في العلم على طريق أهل الجدل، من غلبة القول على العمل"،

ثم قال - أعني صاحب [اليواقيت] رضي الله عنه-: "والحق أن الاشتغال ليس ببطالة وإنما هو أساس الطريق. فإن من شأن أهل الطريق أن تكون جميع حركاتهم وسكناتهم محررة على الكتاب والسنة، ولا يعرف ذلك إلا بالتبحر في علم الحديث والتفسير. فقول الغزالي هذا إنما هو قول صدر منه حال عشقه في طريق القوم، والعاشق حكمه حكم السكران. ولو أنه تأمل في حاله لعرف ما قلناه من أن الفقه أساس الطريق، وأن غاية الصوفي أنه عالم عمل بعلمه لا غير" اهـ.

ونصوص الكمل من مشايخ الطريق في هذا الباب واضحة، وتصانيفهم بما لهم فيه من جلي العبارات وسنى الإشارات طافحة. واقتصرنا منه على هذا القدر اليسير مما يفيد مطلب التبصير، في التعريف بمنشإ علوم الرجال، والإشارة إلى بعض ما امتازوا به في هذا المجال.

وقد اتضح بحمد الله تعالى أن منشأ علومهم إنما هو العمل بالكتاب والسنة، بإحكام الشروط الإسلامية، والوفاء بالربوط الإيمانية، حتى ينقدح لهم في بواطنهم من سواطع الأنوار الربانية، ما يكشف لهم بإذن الله عن مخبآت أسرار الشريعة المطهرة وخفيات أنوار الحقائق العرفانية.

فالعالم بعلم الباطن هو من أخذ حظا من علوم الدراسة، فأفاده علم الدراسة العلم بالعلم، وأفاده العمل علم الباطن، فصار مشاركا للعلماء في علومهم، وتميز عنهم بعلوم زائدة هي علوم الباطن، وتسمى أيضا **علوم الوراثة** أخذا من لفظ الخبر: (**مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**).

وإنما أفادهم العمل بما علموا علم ما لم يعلموا لإحكامهم أساس التقوى دون غيرهم. وقد قال الله تعالى: ﴿**وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ**﴾[1]. قال الشيخ محي الدين: "أي ما لم تكونوا تعلمون بالوسائط من العلوم الإلهية، ولذلك أضاف سبحانه التعليم إلى الاسم (الله) الذي هو دال على الذات، وجامع للأفعال والأسماء والصفات" أهـ. فإحكام أساس التقوى هو السلم الذي يُرتقى به إلى إدراك العلوم الكبار، ويشرف منه على فهم دقائق الأسرار. قال في [الحكم العطائية]: "كيف يُشْرِقُ قلبٌ صُوَرُ الأكوان منطبعة في مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله تعالى وهو لم يتطهر من جنابات غفلاته، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته" اهـ. يريد أن فهم دقائق الأسرار لا يكون إلا بتحقيق مقام التوبة، ولا يتحقق مقام التوبة إلا بإحكام أساس التقوى، في الظاهر والباطن والسر والنجوى.

فأهل الطريق رضي الله عنهم أحكموا أساس التقوى، فتعلموا العلم لله، وعملوا بما علموا لموضع تقواهم، فورثهم الله علم ما لم يعلموا من غرائب العلوم، ودقائق الإشارات و رقائق الفهوم. فاستنبطوا من كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم غرائب الأمور وعجائب الأسرار. فرسخت

1- البقرة: **282**

أقدامهم في العلم. فهم العلماء الراسخون، ﷺ وأرضاهم، وأَنَالَنَا بمحض فضله وكرمه مما خصهم به وأولاهم آمين.

قال الشيخ أبو بكر الواسطي رحمه الله تعالى: "الراسخون في العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب وفي سر السر، فعرّفهم الحق سبحانه وتعالى ما عرَّفهم، وأراد منهم من مقتضى الآيات ما لم يرده من غيرهم. فخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات، فانكشف لهم من مدائن الخزائن والمخزون ما تحت كل حرف وأية، فاستخرجوا الدرر والجواهر، ونطقوا بالحكمة" اهـ.

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله تعلى: "التقى أحمد بن حنبل وأحمد بن أبي الحُوَّاري، فقال ابن حنبل لابن أبي الحُوَّارِي: يا أحمد، حدثنا بحكاية سمعتها من أستاذك أبي سليمان. فقال ابن أبي الحُوَّارِي لابن حنبل: يا أحمد قل سبحان الله بلا عَجَب. فقال ابن حنبل: سبحان الله، وطولها، فقال ابن أبي الحُوَّارِي: سمعت أبا سليمان يقول: إذا اعتَقِدت النفوسُ على ترك الآثام، جالت في الملكوت. وعادتَ إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤديَ إليها عالم علما. فقام ابن حنبل ثلاثا وجلس ثلاثا، وقال: ما سمعت في الإسلام بحكاية أعجب إليَّ من هذه. ثم ذكر الحديث (**مَنْ عَمِلَ بما عَلِم ورَّثه اللهُ علمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**). ثم قال لابن أبي الحُوَّارِي: صدقت يا أحمد وصدق شيخك. أهـ.

فعلم أن العلوم التي امتاز بها أهل الله تعالى عمن عداهم إنما هي كما قاله الشيخ أبو عبد الله القرشي: "أسرار يبديها الحق تبارك وتعالى إلى أمناء الأولياء، وسادات النبلاء، من غير سماع ولا دراسة، ولم يُطْلِع عليها إلا الخواص" أهـ.

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى: "للعارفين خزائن أودعوها علوما غريبة، وأنباء عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية، ويخبرون عنها بعبارة أزلية، وهي من العلم المجهول" أ هـ. قال في [العوارف]: "وقوله: بلسان الأبدية وعبارة أزلية إشارة، إلى أنهم ينطقون بالله" أ هـ. وقوله: وهي من العلم المجهول، أراد به العلم الذي لا يهتدي إلى فهمه والاطلاع عليه إلا العلماء بالله تعالى، وهو المشار إليه في الحديث الذي رواه ابن عُيينة عن ابن جُرَيح عن عطاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (**إِنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لاَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ العُلَمَاءُ بِاللهِ تعالى، فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لاَ يُنْكِرُهُ عَلَيْهِمْ إِلاَّ أَهْلُ الغِرَّةِ بِاللهِ**). أ هـ.

وممن صرح بأنَ علم العارفين بَالله هو المشار إليهَ في هذا الحديث العارفُ ابن عبّاد الرَّندي رضي الله عنه.

فلا شك أن العارفين بالله تعالى هم المكاشفون بصريح العلم، وأن علمهم هو العلم اللدني الذي لا بقاء للجهل معه، كما أن طلوع الشمس لا بقاء للظلام معه. فهو العلم الصحيح الذي لا يتطرق إليه الفساد بحال، لأنه ليس من طريق الفكر. قال الشيخ محي الدين رضي الله عنه: "علومنا وعلوم أصحابنا ليست من طريق الفكر، وإنما هي من الفيض الإلهي. وذلك لأن علوم الفكر يتطرق إليها الفساد والصحة فهي مظنونة فلا يوثق بما تعطيه". قال: "وأعني

بأصحابنا أصحاب القلوب والمشاهدة لا العُبَّاد ولا الزهاد ولا مطلق الصوفية إلا المحققين منهم. ولهذا يقال في علوم النبوة والولاية إنها وراء طور العقل ليس للعقل فيها دخول، ولكن له القبول إذا كان سليما لم تغلب عليه شُبْهَة خيالية فكرية يكون من ذلك فساد نظر" أ هـ.

"فإذن اسم **الفقيه** أولى بهذه الطائفة من غيرهم، فإنهم هم الذين يدعون إلى الله على بصيرة". قاله الشيخ محي الدين عقب كلام له في هذا المعنى.

وقال في [العوارف]، عقب كلام في المعنى أيضا: "وهذا العلم – يعني علم العارفين بالله تعالى – هو الفقه في الدين، وقد قال الله تعالى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾[1] فصار الإنذار مستفادا من الفقه في الدين، والإنذار هو إحياء المنذر بماء العلم. فالإحياء بالعلم رتبة الفقيه في الدين. فصار الفقه في الدين من أكمل المراتب وأعلاها. هـ. ومن هنا اختص علماء الباطن بالدلالة على الله والهداية إلى الطريق الموصلة إليه سبحانه دون غيرهم" هـ.

وذكر في [اليواقيت والجواهر]: أن مما اختص به علماء الباطن عن غيرهم علمَهم بالطريق الموصلة إلى العمل بالكتاب والسنة، قال: "فإذا قلت لهم: مقصودي أن أزهد في الدنيا بحيث لا يبقى عندي ميل عادي إليها مثلا، يقولون لك: أكثر من ذكر الله تعالى ليلا ونهارا حتى يرق حجابك فتدرك الآخرة بعين بصيرتك، وتنظر ما لمن يزهد في الدنيا من الدرجات والنعيم. فإذا رأيت ذلك زهدت لا محالة في الدنيا. ولو قال لك جمهور الناس أرغب في الدنيا لا تصغي إليهم". قال: "ولو أنك قلت ذلك لعالم أي يعلم الظاهر فقط لقال لك: إن الله أمرك أن تزهد فازهد. ولا يهتدي إلى الطريق الموصلة إلى ذلك فحكمه حكم طبيب يحفظ كتابا في الطب ولا يعرف كيفية علاج المرض" اهـ.

ومما اختص به علماء الباطن أيضا عمن عداهم معرفتهم بأمراض القلوب على كثرتها واختلاف أنواعها باختلاف مراتب النفس، ومعرفتهم بأدويتها جملة وتفصيلا.

ومن ذلك أيضا معرفتهم بآداب حضرات الحق جل وعلا في بساط التكاليف الشرعية في جميع مقامات الدين. فإن لكل مقام منها آدابا تخصه، لا يعرف الطريق الموصلة إلى العمل بتلك الآداب إلا علماء الباطن.

قال الشيخ العارف بالله تعالى سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه في [طبقاته]: "وكان سيدي علي بن سيدي محمد وفا يقول: من المتفقهين تستفيد دعوى العلم بأحكام الدين، ومن العلماء العاملين تستفيد العمل بأحكام الدين. فانظر أي الفائدتين أقرب قربى عند رب العالمين فاستمسك بها. وإذا قال لك المتفقهون: ماذا استفدت من الصوفية الصادقين: فقل لهم: استفدت منهم حسن العمل بما استفدته منكم من أقوال أحكام الدين" أ هـ، منها في ترجمة الشيخ سيدي علي المذكور رضي الله عنه.

---

1 - التوبة: **122**

وكما اختص علماء الباطن بمعرفة الطريق الموصلة إلى الأعمال الشرعية الظاهرة والباطنة في بساط المعاملات، فكذلك اختصوا أيضا بما لم يشاركهم فيه غيرهم من علوم المعارف الإلهية، والحقائق الفردانية، في بساط المكاشفات وحضرات المشاهدات، لأنهم حصلوا على علم التوحيد الخاص، بالكمل من الخواص، من طريق الكشف الحقاني، والشهود العياني. وهذا العلم هو الذي تقدم لنا أنه يسمى علم المكاشفة، لأن صاحبه يكاشف من المعرفة بالله تعالى وبأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، بما لا تدركه العقول، ولا يأتي عليه المقول. وهو أعلى الدرجات في التوحيد. لأنه: إما تقليدي: وهو توحيد العوام، وإما نظري: وهو توحيد أهل النظر من علماء الظاهر القاصرين عن مرتبة أهل الأذواق العرفانية، وإما كشفيٌّ شُهودي: وهو توحيد العارفين بالله تعالى.

وهذا العلم حسبما تقدم النوع الثاني من نوعي علم الباطن، وهو نتيجة العمل بالنوع الأول الذي هو علم المعاملات في الظاهر والباطن، كما أن علم المعاملات نتيجة علم الظاهر.

فقد اتضح لك – بحمد الله تعالى – منشأ علوم أهل الكمال، وعثرت على بعض ما يشير إلى ما امتازوا به من أسرار الأذواق على طريق الإجمال.

تنبيه

ما تقدم لنا من أن العالم بعلم الباطن هو العالم العامل بعلمه إلخ ربما تبادر منه أن من شرط الاتصاف بعلم الباطم تقدُّمَ التَّغلغلِ في علم الظاهر، والإحاطة بعلوم الشريعة، وليس ذلك بمراد. وإنما المراد تقدمُ ما تقومُ به فَروض الأعيان، أي ما يحتاج إليه من علوم الشريعة من كل ما يتوقف المرِيد عليه في سلوكه، إذ كثير من العلوم الظاهرة لا مدخل لها في السير والسلوك، وإلا لزم الحَطُّ من مرتبة كثير من فحول الطريقة. فقد كان كثير منهم غير متضلعين بعلوم الشريعة. والظاهر أنه إنما تشترط الإحاطة بعلوم الشريعة في الكمل من الأولياء كالأقطاب ونحوهم اهـ باختصار من [الجيش] ناقلا له عن المسناوي، فراجعه إن شئت.

وقد نقل الشعراني عن سيدي علي الخواص ﵁ في [الطبقات] وغيرها في هذا الباب ما يشنف الأسماع، ويقع به الإمتاع. وملخصه: أن الكامل من الرجال يحيط من طريق كشفه الحقيقي بأحكام الشريعة كلها أصولها وفروعها، ومنطوقها ومفهومها، وناسخها ومنسوخها، وسائر أحكامها وعللها، ووجوه استنباطاتها، وغير ذلك مما يتعلق بها، حتى لو فرض اندثار دواوينها جملة وتفصيلا لأملاها من صدره بحيث لا يترك مسئلة منها اهـ.

والظاهر أن المراد بهذا الكامل الموصوف بهذه الخصوصية القطبُ الكبير لا غيره لأنه هو الذي يفاض عليه سر القرآن العظيم.

قال سيدنا أبو العباس التجاني ﵁: "سر القرآن لا يعلمه إلا القطب الكبير وإن كان لا يحفظ القرآن فسره يعلمه يفاض عليه، بخلاف الحفظ فإنه لا يفاض عليه، ولا بد أن يقرأه كما تقرأه العامة" اهـ الغرض من كلامه هنا ﵁.

وقد صرح رضي الله عنه في بعض أجوبته – حسبما في [جواهر المعاني] – بأنه "لا يحيط بمعرفة أحكام الشريعة وجميع العلوم التي يحتاج إليها الناس إلا الفرد الجامع لأنه هو الحامل للشريعة في كل عصْر ولو كان أميا لم تسبق له قراءة"انتهى.

تذييل

يكون لما أوردناه في هذا المطلب كالتتمة والتحصيل بهذا الذي تقرر في هذا المطلب من بيان منشإ علوم أهل الله تعالى رضي الله عنهم وأرضاهم يتحقق المنصف المشفق على نفسه من النار، وعلى دينه من اللِّحاق فيه بأهل البوار، أن جميعهم على هدى من الله تعالى وعلى بينة منه سبحانه في جميع ما يأتون وما يذرون، لا يخرجون عن الشريعة المطهرة فيما يسرون به ولا فيما يجهرون، وأنهم – كما قال في [اليواقيت والجواهر] "كالأئمة المجتهدين، لا ينبغي لأحد أن ينكر عليهم كلامهم إلا بعد أن يدخل طريقهم، ويعرف مصطلحهم، وأن جميع من شطح منهم عن ظاهر الشريعة إنما هو دخيل فيهم، أو غلب عليه حال، أو كان مبتدئا في الطريق. وأما الكاملون فطريقهم محررة على الأدب، تحرير الذهب، إذ هم حماة الدين وأنصاره، رضي الله عنهم" اهـــ الغرض من كلامه هذا في المحل.

وقال في محل آخر من هذا الكتاب أيضا: "سبب إنكار بعض الناس على أهل الطريق إنما هو دقة مداركهم. ولو أن المنكر لزم الأدب لسلَّم للقوم كل ما خالف فهمه مما لم يعارض كتابا ولا سنة ولا إجماعا" اهـــ.

قلت: ولا سبيل له إلى معرفة ما لم يعارض الكتاب والسنة والإجماع إلا بالإحاطة بإقوال جميع المجتهدين، ومعرفة سائر منازعهم وقواعدهم التي أسسوا عليها مذاهبهم، وأنَّى لهؤلاء المتهورين عفا الله عنا وعنهم ذلك. وكيف لهم الوصول إلى ما هنالك. فحسبهم لو كانوا يفقهون التصديق بما أدركوه، والتسليم لما لا يفهمون. وانظر [الذهب الإبريز] فيما يتعلق بهذا الباب، فقد أجاد مؤلفه فيه بما لا يحيد عن قبوله إلا حائد عن الصواب، متنكب عن نهج أولي الألباب، وربما ألْمَمنَا ببعض ذلك إن شاء الله تعالى أثناء هذا الكتاب.

وقال الشعراني أيضا في الكتاب المذكور بمحل آخر أيضا ناقلا عن الشيخ محيي الدين رضي الله عنه أنه قال: "لا يخفى أن أصل الإنكار من الأعداء المبطلين، إنما ينشأ عن الحسد. ولو أن المنكرين تركوا الحسد، وسلكوا طريق أهل الله تعالى لم يظهر منهم إنكار وازدادوا علما إلى علمهم، ولكن هكذا كان الأمر. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم".

قال: ثم قال – يعني الشيخ محي الدين –: وأشد الناس عداوة لأصحاب علوم الوهب الإلهي في كل زمان أهل الجدال بلا أدب، فهم لهم من أشد المنكرين". قال: "ولما علم العارفون منهم ذلك عدلوا إلى الإشارة كما عدلت مريم عليها السلام إلى الإشارة. فلكل آية أو حديث عندهم وجهان: وجه يرونه في نفوسهم، ووجه يرونه فيما خرج عنهم. قال

سبحانه وتعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾[1]، فيسمون ما يرونه في أنفسهم إشارة ليأنس المنكرون عليهم، ولا يقولوا إن ذلك تفسير لتلك الآية أو الحديث وقاية لشرهم ورميهم لهم بالكفر جهلا من الرامين بمواقع خطاب الحق سبحانه وتعالى، واقتدوا في ذلك بسَنَن من قبلهم. والحق سبحانه وتعالى كان قادرا أن ينص ما تأولَه أهل الله وغيرهم في كتابه كآيات المتشابهات والحروف أوائل السوَر، ومع ذلك فما فعل سبحانه وتعالى، بل أدرج في تلك الكلمات الإلهية والحروف علوما اختصاصية لا يعلمها إلا عباده الخُلَّص. ولو أن المنكرين كانوا ينصفون لاعتبروا في أنفسهم إذا رأوا الآية بالعين الظاهرة التي يسلموها فيما بينهم، فيرون أنهم يتفاضلون في ذلك ويعلمون المزية لبعضهم على بعض في الكلام والفهم في معنى تلك الآية، ويقر القاصر منهم بفضل غير القاصر عليه وكلهم في مجرى واحد. ومع هذا التفاضل المشهور فيما بينهم ينكرون على أهل الله تعالى إذا جاءوا بشيء يغمض عن إدراكهم".

قال: "وكل ذلك لكونهم لا يعتقدون في أهل الله تعالى أنهم يعلمون الشريعة، وإنما ينسبونهم إلى الجهل والعامية، لاسيما إن لم يقرءوا على أحد من علماء الظاهر. وكثيرا ما يقولون: من أين أتى هؤلاء العلم، لاعتقادهم أن أحدا لا ينال علما إلا على يد معلم. وصدقوا في ذلك، فإن القوم لما عملوا بما علموا أعطاهم الله تعالى علما من لدنه بإعلام رباني أنزله في قلوبهم مطابقا لما جاءت به الشريعة لا يخرج عنها ذرة. قال تبارك وتعالى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[2] وقال ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3] وقال في عبده خضر ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾[4].

"وصدق المنكرون في قولهم: إن العلم لا يكون إلا بواسطة معلم. وأخطئوا في اعتقادهم أن الله تعالى لا يعلم من ليس بنبي ولا رسول. قال تعالى ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾[5]، والحكمة هي العلم، وجاء بمَنْ وهي نكرة. ولكن هؤلاء المنكرون لما آثروا الدنيا على الآخرة وعلى ما يقرب إلى الله تعالى، وتعودوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال، حجبهم ذلك عن أن يعلموا أن لله تعالى عبادا تولى تعليمهم في سرائرهم، إذ هو سبحانه المعلم الحقيقي للوجود كله، وعلمه هو العلم الصحيح الذي لا يشك مؤمن ولا غير مؤمن في كماله". ثم قال بعد كلام: "فعلم أن من كان معلمَه الله تعالى كان أحق بالإتباع ممن كان معلمه فكره. ولكن أين الإنصاف".

ثم قال بعد كلام أيضا: "وأين تكذيب هلاء المنكرين لأهل الله تعالى في دعواهم العلم من قول مولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لو تكلمت لكم في تفسير سورة الفاتحة لحملت لكم

---

1 – فصلت: **53**
2 - الرحمن: **3-4**
3 – العلق: **5**
4 - الكهف: **65**
5 – البقرة: **269**

منها سبيعين وقرا، فهل ذلك إلا من العلم اللدني الذي أتاه الله تعالى من طريق الإلهام، إذ الفكر لا يصل إلى ذلك".

قال: "وقد كان الشيخ أبو يزيد البسطامي ﷺ يقول لعلماء زمانه: أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. وكان الشيخ أبو مدين ﷺ يقول لأصحابه إذا سمع أحدا منهم يقول: أخبرني فلان: لا تطعمونا القديد. يريد بذلك رفع همة أصحابه. يريد: لا تحدثوا إلا بفتوحكم الجديد الذي فتح الله تعالى به على قلوبكم في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، فإن الواهب للعلم الإلهي حي لا يموت، وليس له محل في كل عصر إلا قلوب الرجال" اهـــ.

فتلخص من هذا كله أن علوم أهل الله تعالى مواهب ربانية، ومنائح حقانية، استتر لها صفاءَ السرائر، وخلوصَ الضمائر، فاستعصت بكنهها عن الإشارة، وطفحت على العبارة اهـــ.

وإنما استعصت على الإشارة لأنها أمور شهودية ذوقية، وما كذلك لا يستعمل فيه الإشارة والإيماء والرمز. وهذه الأمور الشهودية بكنهها وحقيقتها تستعصي على الإشارة فلا يُدرك كنهُها بذلك، وإنما يدرك بالشهود والكشف. وإنما كانت هذه العلوم لا يستعمل فيه إلا الإشارة[1] لأن العبارة تزيدها غموضا. قال الشيخ علي الرُّوذباري: "علمنا هذا إشارة، فإذا صار عبارة خفي" اهـــ.

ومن هنا احتاج أهل الله تعالى إلى وضع الإشارات المصطلح عليها فيما بينهم، فيتكلمون بها عند حضور الغير، وفي تآليفهم ومصنفاتهم لا غير. ولم يضعوها لأنفسهم لأنهم يعرفون الحق الصريح في ذلك.

والحامل لهم على وضعها الشفقة على الدخيل بينهم خشية أن يسمع منهم، أو يرى في تآليفهم، شيئا لا يصل إليه فهمه فينكره فيعاقب بحرمان علمه فلا يعلمه بعد، والعياذ بالله تعالى. أهـــ نقله في [اليواقيت] عن الشيخ محي الدين ﷺ.

قال: "ومن أعجب الأشياء في هذه الطريقة، ولا يوجد إلا فيها، أنه ما من طائفة تحمل علما من المنطقيين والنحاة وأهل الهندسة والحساب والمتكلمين إلا ولهم اصطلاح لا يعلمه الدخيل فيهم إلا بتوقيف من الشيخ أو من أهل هذا الفن، لا بد من ذلك، إلا أهل هذه الطريقة خاصة. فإن المريد الصادق إذا دخل طريقهم وما عنده خبر بما اصطلحوا عليه، وجلس معهم، وسمع منهم ما يتكلمون به من الإشارات، فَهِمَ جميع ما يتكلمون به حتى كأنه الواضع لذلك الاصطلاح ويشاركهم في ذلك. ولا يستغربَ ذلك من نفسه، بل يجده علما ضروريا لا يقدر على دفعه. فكأنه لا زال يعلمه ولا يدري كيف حصل له. هذا شأن المريد الصادق. وأما غيره فلا يعرف ذلك إلا بتوقيف منهم" اهـــ.

[1] ـــ جاء في تصحيح المعطي بن محمد المسفيويرحمه الله. على الأصل زيادة (والرمز وهذه الأمور الشهودية بكنهها وحقيقتها تستعصي على الإشارة فلا يدرك كنهها بذلك وإنما يدرك بالشهود والكشف، وإنما كانت هذه الأمور لا يستعمل فيها إلا الإشارة لا العبارة لا تزيدها الخ)

قلت: وذلك لأن المريد الصادق لا يرى إلا ما يسره، وكلُّ ما أشكل عليه في علوم يلهمه الله تعالى فهمه، وذلك من ثواب صدقه. بخلاف غيره، فإنه لا يعرف شيئا من ذلك إلا بتوقيف من شيخ مربّ أو أخ مرشد لا غير. وهذا لا يجوز له الخوض في علوم الطريق حتى يعرف ما اصطلحوا عليه، أي ما اصطلح عليه أهلِ الطريق فيما يتكلمون به من الإشارات في تآليفهم. قال بعض الشيوخ: "من لم يعرف مصْطَلَحْنا عليه لا يجوز له الخوض في طريقنا" اهــ. ومن هنا كان الأستاذ القشيري ﷺ يقول: "نَهَوا المريدَ أن يطالع في شيء من كتب القوم من غير قراءة على شيخ أو أخ عارف بما اصطلحنا عليه" هــ. وكان بعض العارفين يقول: "نحن قوم يَحْرُم النظر في كتبنا على من لم يكن من أهل طريقتنا، وكذلك لا يجوز أن يُنْقَل كلامُنا إلى من يؤمن به، فمن نقله لمن لا يؤمن به دخل هو والمنقولُ إليه جهنم الانكار. وقد صرح بذلك أهل الله تعالى على رؤوس الأشهاد، وقالوا: "من باح بالسر استحق القتل" اهــ.

فإن قيل: هلا طوى العلماء من أهل الطريق بساط التأليف والتصنيف في مثل هذه العلوم، وأمسكوا عن الخوض في رقائق الإشارات ودقائق هذا السر المكتوم، لأن الكلام في ذلك ربما أضَرَّ بالقاصرين من الفقهاء فضلا عمن عداهم، بل ربما خفيت وجوه المخرج فيه عن بعض النبلاء، فضلا عمن سواهم. أما كان عندهم من الحكمة، والنظر للخلق بعين الشفقة والرحمة، ما يمنعهم من الخوض في ذلك، والتقَحُّم لمضايق هاتيك المسالك.

قلنا: قد ذكر في [اليواقيت والجواهر] عن العارف بالله تعالى سيدي علي بن وفا ﷺ أنه قيل له مثل هذا، فأجاب بقوله ﷺ: "يقال لهذا القائل: أليس الذي أطلع شمس الظهيرة، ونشر ناصع شعاعها، مع إضراره بأبصار الخفافيش ونحوها من أصحاب الأمزجة الضعيفة عليما حكيما. فإن قال: صحيح ذلك، ولكن عارض ذلك مصالح أخر تربو على هذه المفاسد، قلنا له: وكذلك الجواب عن مسألتك. فكما أن الحق سبحانه وتعالى لم يترك إظهار أنوار شمس الظهيرة مراعاة لأبصار من ضعف بصره، فكذلك العارفون لا ينبغي لهم أن يراعوا أفهام هؤلاء المحجوبين عن طريقهم، بل الزاهدين فيها، بل المنكرين عليها". وأطال – أعني العارف ابن وفا – في ذلك، ثم قال: "وهل به دوّن المجتهدون من التابعين وما بعدهم ما استنبطوه من الكتاب والسنة ليستعان به على هوى النفس، وحب الرياسة والجاه، وكسب الدنيا به، والمزاحمة على التقرب من الملوك والأمراء. والله ما كان ذلك قصدهم، ولكن كان أَمْرُ الله قَدَراً مَقْدوراً".

ثم قال ﷺ: "فكما أن المجتهدين لم يُمنعوا من تدوين العلم الذي يكتسب الناس به بعض الدنيا، بل جعل الشارع لهم أجر نيتهم الصالحة وإن لم يعمل الناس بذلك، فكذلك العارفون لهم أجر نيتهم وقصدهم الصالح من نفع المريدين بما وضعوه من الحقائق الكاشفة لمشكلات علم التوحيد وأمراض القلوب".

ثم قال ﷺ: "ومن فوائد تدوينهم تلقيح قلوب الناظرين في رسائلهم من بعدهم فيظفروا من تلك المعاني بما يرقيهم، ويبعث سحائب الرحمة على قلوبهم وعلى ألسنتهم فتُشْرِق أرض قلوبهم بنور رشدهم تحيى بأثر هدايتهم. فنابت عنهم رسائلهم في نصح المريدين من بعد

موهم. وكان تدوين معارفهم وأسرارهم من أحق الحقوق عليهم لكون غيرهم لا يقوم مقامهم في تدوين أدوية أمراض القلوب وآداب حضرات الحق تعالى في جميع الأمور المشروعة، فإن لكل مقام حضورا وآدابا تخصه" اهـــ.

وإنما أرخينا من عنان القلم في جلب هذه الأنقال هنا تتميما للفائدة المقصودة من هذا المطلب الشريف، وتنشيطا لهمم المريدين على التعلق بمَرْقب هذا العلم السني المنيف. إذ لا محالة أنه العلم النافع، والنور الذي يقذفه الله تعالى في قلب من شاء من خواص عباده بلا منازع ولا مدافع.

قال الإمام المحدث الصوفي أبو عبد الله سيدي محمد بن علي الترمذي رحمه الله تعالى ورضي عنه: "العلم النافع هو الذي تمكن في الصدر وتصور. وذلك أن النور إذا أشرق في القلب، وتصورت الأمور حَسَنُها وسيئُها، وقع بذلك ظل في الصدر. فهو صورة الأمور، فيأتي حسنَها، ويجتنب سيئها، فذلك العلم النافع. فمن نور القلب خرجت تلك العلامات إلى الصدر، وهي علامات الهدى. والعلم الذي تتعلمه – وهو علم اللسان – إنما هو شيء قد استُودِع الحِفظ، والشهوةُ غالبة عليه قد أحاطت به وأذهبت بظلمتها ضوءه" اهـــ.

وهذا العلم – أعني العلم النافع هو المراد في قول إمام الأئمة مالك بن أنس ﷺ: "ليس العلم بكثرة الروايات، وإنما هو نور يقذفه الله في القلوب". اهـــ. قال سيدي أبو عبد الله بن عباد رحمه الله تعالى ورضي عنه: "ومنفعة العلم أن يقرب العبد من ربه، وأن يبعده عن رؤية نفسه. وذلك غاية سعادته، ومنتهى طلبه وإرادته" اهـــ.

وقد نقل رحمه الله تعالى في حقيقة العلم النافع عن الإمام الجنيد ﷺ عبارة وجيزة سنية، جامعة لما دار عليه مقصد علوم الصوفية، وهو: معرفة الله تعالى وحسن الأدب بين يديه سبحانه فقال: "قال الجنيد رحمه الله تعالى: العلم أن تعرف ربك، ولا تعدو قدرك" اهـــ.

ثم قال رحمه الله: "وهذه العلوم هي العلوم التي ينبغي للإنسان أن يستغرق فيها عمره الطويل، ولا يقنع منها بالكثير ولا بالقليل. قال سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ: من لم يتغلغل في هذه العلومِ - يعني علومَ أهل الله تعالى – مات مصرا على الكبائر وهو لا يعلم" اهـــ.

قال سيدي محمد بن عباد رحمه الله تعالى: "وما سوى هذه العلوم قد لا يحتاج إليها وربما أضر بصاحبها مداومته عليها. وقد استعاذ رسول الله ﷺ من علم لا ينفع" اهـــ.

وقال الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى مشيرا إلى بيان منفعة العلم ما نصه: "العلم علمان":

- علم لا يُحتاج منه إلا مثلُ ما يُحتاج إليه من القوت، فينبغي الاقتصاد فيه، والاقتصار على قدر الحاجة، وهو علم الأحكام الشرعية. لا يُنْظَرُ منه إلا قدر ما تمس الحاجة إليه في الوقت. فإن تعلق ذلك إنما هو الأفعال الواقعة في الدنيا، فلا تأخذْ منه إلا قدر عملك.

- وعلم لا حد له يوقف عنده، وهو العلم المتعلق بالله تعالى وبمواطن الآخرة ليستعد العبد لكل موطن بما يليق به" انتهى.

تحذير

لا يكن هذا الذي جلبناه في هذا المحل من الأنقال، الرادعة لأهل الإنكار والضلال، ذريعة إلى أكل لحوم الأئمة المهتدين، الذين هم حملة الشريعة المطهرة وأعلام السنة والدين، فإن وبال ذلك والعياذ بالله تعالى عظيم، ومرتعه لا محالة وخيم.

قال الإمام أبو القاسم بن عساكر رحمه الله تعالى ورضي عنه: "اعلم يا أخي، وفقني الله وإياك لمرضاته، وجعلنا جميعا ممن يخشاه ويتقيه حق ثقاته، أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله تعالى في هتك أستار متنقصيهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثّلْب، ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب. ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] اهـــ ينقل العلامة الحطاب رحمه الله تعالى في أول [شرحه لمختصر الشيخ خليل] رحمه الله تعالى ورضي عنه آمين.

ومن الأمثال في هذا المعنى قول الشاعر.

لحوم أهل العلم مسمومة ... ومن يعاديهم سريع العَطَبْ

ولْيَكْفِ هذا القدر فيما أردنا في هذا المطلب إيراده، مما ينتفع به إن شاء الله تعالى كل محب راغب في طريق الإرادة.

وأعوذ بالله تعالى أن أدعي فيما أتيت به من هذه النقول، إشرافا على شيء من أذواق أصحابها الأكابر الفحول، وإنما هو شيء أوردته، على حسب ما تعقلته، ليكون لي ولمن وافقني في تعقله تذكرة وتبصرة في الغرض الذي قصدته، والمرمى الذي انتحيته.

وجلَّت علومُ أهل الله تعالى أن يُتَصرَّف فيها ببضاعة العقل، وخصوصا في زمن انطمست فيه معالم الخير واندرست فيه مراسم الفضل، واستولت على أهله – إلا من عصمه الله بفضله – عوارض الهوى فارتكموا في أودية الضلال والجهل. فعي واسمعي، وإياك أعني يا جاره، وليس إلى غير نفسي يساق حديث هذه الإشارة.

وقديما قال الأستاذ السَّهْرَوَرْدي ﷺ، بعد أن تكلم في بيان شرف علم الطريق وشفوف مرتبته، وعلو قدره ومترلته، ما نصه: "وقد اندثر كثير من علومهم، كما انطمس الكثير من حقائق رسومهم". ثم قال: "وقال الجنيد رضي الله عنه: علمنا هذا طوي بساطه منذ كذا سنة، ونحن الآن نتكلم في حواشيه" اهـــ. ثم قال: "هذا القول من الجنيد في وقته، مع قرب العهد من علماء السلف وصالحي التابعين، فكيف لنا ذلك مع بعد العهد وقلة العلماء الزاهدين، والعارفين بحقائق الدين" اهـــ.

وأقول: هذا من الأستاذ السَّهْرَوَرْدي في زمانه الصالح، المستضاء فيه بغرر أمثاله القادة الأعيان، فأنَّى لنا ذلك ونحن في آخر ذنب الأزمان، مع ما غلب من استيلاء الغفلة واستحواذ الشيطان، وتراكم ظلم الغَوَاية والخِذلان.

---

1 – النور: **63**

اللهم إنا نسألك العافية الكاملة، الدائمة الشاملة، بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين.

المطلب الثاني

فِي بَعْضِ مَا يُشِيرُ إِلَى حَقِيقَةِ الأَدَبِ عَلَى جِهَةِ الإِجْمَالِ، وَبَيَانُ مَنْشَاءِ وَمَكَانَتِهِ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ الكَمَالِ.

لما كانت هذه الطريقة الأحمدية، مشتملة من محاسن الآداب على ما لا تكاد تحيط به العقود العددية، وكان غالب مسائلها التي ينكرها البلداء الأغبياء، مبنيا على كمال الأدب وتحقيقه في نظر النبهاء الأذكياء، أحببت أن يكون هذا المطلب من جملة ما يتقدم في هذا التقييد أمام جميع مسائله، ليكون كالغرة في وجه مقاصده ووسائله. فأقول وبالله التوفيق، والهداية إلى مسالك الإيضاح والتحقيق:

اعلم أن المشايخ الكاملين، والعارفين المحققين الواصلين، قد اتفقوا على أن الأدب في طريق أهل الله تعالى آكد كل أمر، وجمّاع كل خير وبر، ونظام أنواع الطاعات والأعمال، وملاك جميع المقامات والأحوال, ونصوا على أن من لازم سلوك سبيله في جميع ذلك وصل واتصل، ومن حاد عن نهجه في شيء منه انقطع وانفصل. وذلك لأن الطريق كما قيل: آداب كلها، لكل وقت أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب. فمن لَزِم الأدب يبلغ مبلغ الرجال، ومن حُرِم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب، مردود من حيث يرجو القبول. اهـــ. إلى غير هذَا مما سنورده إن شاء الله تعالى في هذا الباب من صريح عباراتهم، وواضح إشاراتهم.

فأما ما يشير إلى **حقيقة الأدب** عند أهل الله تعالى، والأصل الذي اعتمده المشايخ رضوان الله عليهم فيما عبروا به عن حقيقته هو ما في الحديث عن النبي ﷺ من قوله: **(أدبني ربي فأحسن تأديبي، ثم أمرني بمكارم الأخلاق)**". الحديث.

قال في [العوارف]: "الأدب تهذيب الظاهر والباطن، فإذا تهذب ظاهر العبد وباطنه صار أديبا". قال: "وسميت المأدبة مأدبة لاشتمالها على الأشياء الحسنة. فلا يتكامل الأدب في العبد إلا بتكامل مكارم الأخلاق فيه" اهـــ.

وقال الشيخ محي الدين رضي الله عنه: "الأدب جماع الخير. وهو ينقسم إلى أربعة أقسام في اصطلاح أهل الله تعالى:

القسم الأول: أدب الشريعة:

وهو الأدب الإلهي الذي يتولى الله تعالى تعليمه بالوحي والإلهام، به أَدَّبَ الله نبيه ﷺ، وبه أدبنا ﷺ ، فهم – يعني الأنبياء عليهم الصلاة والسلام – المؤدِّبون المؤدَّبون، وفي الحديث **(إِنَّ اللهَ أَدَّبَنِي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي)**.

القسم الثاني: أدب الخدمة:

وهو ما اصطلحت عليه الملوك في خدمة خدمها، وملكُ أهل الله هو الله تعالى. وقد شرع لنا كيفية الأدب في خدمته، وهو معاملتنا إياه فيما يختص به دون خلقه. فهو خصوص في أدب الشريعة لأن الشريعة جامعة لحق الله تعالى وحق الخلق.

القسم الثالث: أدب الحق:

وهو الأدب مع الحق في اتباعه عند كل من يظهر عنده ويحكم به، فترجع إليه وتَقْبَلُه ولا ترده، ولا تحملك الآنفَة إن كنت ذا كِبَر في السن أو المرتبة أن لا تقبل الحق ممن هو أصغر منك سنا أو قدرا. وهذا هو الإنصاف.

القسم الرابع : أدب الحقيقة:

وهو ترك الأدب بعَنَائك، ورد ذلك كله إلى الله تعالى" اهـــ.

قلت: وقوله: ترك الأدب إلخ المراد ترك شهوده، لا ترك وجوده، كما هو مصطلح الشيخ في جميع التروك المترجم لها في كتابه الفتوحات المكية، والله تعالى أعلم.

ونقل بعض [شراح الرسالة] عن بعضهم في حقيقة أدب أهل الله تعالى أنه: "ضبط الحواس، ومراعاة الأنفاس، والاشتغال بالتفكر في مصنوعات الله تعالى" اهـــ.

ونقل في [العوارف] عن عبد الله بن المبارك أنه قال رضي الله عنه: "قد أكثر الناس في الأدب، ونحن نقول: الأدب معرفة النفس" اهـــ. ثم قال إثره: "هذه إشارة منه رحمه الله تعالى إلى أن النفس منبع الجهالات، وترك الأدب من مخامرة الجهل، فإذا عرف العبد النفس صادف نور العرفان، على ما ورد: من عرف نفسه فقد عرف ربه. ولهذا النور لا تظهر النفس بجهالة إلا ويقمعها بصريح العلم وحينئذ يتأدب" اهـــ.

وفي كلام غير واحد من المشايخ الكبار في تفسير هذا الخبر ما يوضح ما ذكره في [العوارف] عن سيدنا عبد الله بن المبارك مع ما فسره به.

قال الشيخ محي الدين النووي رحمه الله تعالى في فتاويه: "معناه: "من عرف نفسه بالضعف والافتقار إلى الله تعالى والعبودية له عرف ربه بالقوة والربوبية والكمال المطلق والصفات العليا" اهـــ.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله رحمه الله تعالى في لطائف المنن: "سمعت شيخنا أبا العباس المرسي رضي الله عنه يقول: في هذا الحديث تأويلان:

- **أحدهما:** من عرف نفسه بذلها وعجزها وفقرها عرف الله بعزه وقدرته وغناه. فتكون معرفة النفس أولا ثم معرفة الله من بعد.
- **والثاني:** من عرف نفسه فقد دل ذلك منه على أنه عرف الله قبل.

فالأول حال السالكين، والثاني حال المجذوبين" اهـــ.

وقال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه في قوت القلوب: "معناه: إذا عرفت صفات نفسك في معاملة الخلق وأنك تكره الاعتراض عليك في أفعالك وأن يعاب عليك ما تصنع عرفت منه صفات خالقك وأنه يكره ذلك، فارض بقضائه، وعامله بما تحب أن تعامل به" اهـــ.

وقول الشيخ أبي طالب هذا في كتاب [القوت] الذي هو مدونة الصوفية أصرح في المراد، وإن كانت هذه الأقوال كلها تتسابق إلى المرمى الذي قصدناه تسابق خيل الطّراد، والله تعالى أعلم.

وقد ذكر هذه الأقوال كلها الشيخ جلال الدين السيوطي ﷺ في جوابه عن هذا الحديث بعد أن قال فيه إنه: ليس بصحيح ونقل عن النووي أنه قال في فتاويه: "ليس بثابت". وذكر عن الزَّرْكَشيِّ أنه قال فيه في الأحاديث المشتهرة: "ذكر ابن السمعاني أنه من كلام يحي بن معاذ الرازي" اهـ.

رجع وقال ابن عطاء: "الأدب: الوقوف مع المستحسنات. قيل له: ما معنى ذلك؟ قال: أن تعامل الله سراً وعلانية بالأدب، فإن كنت كذلك كنت أديبا وإن كنت أعجميا؟. ثم أنشد:

إذا نطقت جاءت بكل مليحة   وإن سكتت جاءت بكل مليح"

ذكره في [العوارف].

وما أحسن قول بعضهم في الأدب: "الأدب أن يؤدب العبد ظاهره وباطنه. أما ظاهره فبالشريعة بأن يتبع السنة قولا وفعلا، وأما باطنه فبالحقيقة بأن يرضى بما يرد عليه من الله، ويتلقاه بالقبول، ويرى أن الكل نعمة عليه من الله تعالى إما عاجلة وإما آجلة، فالعاجلة بلوغ النفس محبوبها عاجلا، والآجلة كأنواع المضار والمكاره فإنه يثاب عليها آجلا ويحط بها عنه من خطيئاته. فهي نعمة بهذا الاعتبار" اهـ.

وصاحب هذا الأدب هو المخصوص برؤية النعم في طي النقم، فيرى نعم الله تعالى عليه ظاهرة وباطنة. قال العارف بالله سيدي عبد الرحمان بن محمد الفاسي رضي الله عنه في حاشيته على شرح الشيخ أبي عبد الله السنوسي لعقيدته الصغرى ما نصه: "قال ابن عباس في تفسر قوله تعالى: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾[1] كل ما يتلذذ به البرايا نعمة ظاهرة، وما شق عليهم من البلايا نعمة باطنة. اهـ بلفظه.

وحاصل هذه العبارات التي عبر بها هؤلاء المشايخ الكمل ﷺ في بيان حقيقة الأدب يرجع إلى أن المراد بالأدب ما تحسن به حالة العبد فيما بينه وبين الله تعالى، وفيما بينه وبين ملائكته سبحانه، وكتبه ورسله، وسائر الناس على اختلاف طبقاتهم وأنواعهم. وعلى هذا فلا يخرج الأدب عند التأمل عن الأقسام الأربعة التي ذكرها الشيخ محي الدين رضي الله عنه. ولا تخرج هذه الأقسام الأربعة عن قسمين: أدب الفقهاء وأدب الصوفية. ويندرج الأول منهما في الثاني فتصير إلى قسم واحد حسبما أفصح به في [جواهر المعاني]، ونص كلامه فيه رحمه الله تعالى: "والأدب عند الفقهاء عبارة عن القيام، بما بعد الواجبات والسنن من الفضائل والرغائب المتعلقة بأحوال الإنسان من نوم ويقظة، وأكل وشرب، وذكر ودعاء، ونحو ذلك. وعند الصوفية عبارة عن جميع خصال الخير، وأوصاف البر. فهو وصف جامع لصفات مجيدة، وأخلاق حميدة، تناسب أوصاف العبودية، وجلال الربوبية. من جمعها كان أديبا متأدبا مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ". ثم قال: "والأدب بالمعنى الأول مندرج في هذا" اهـ.

---

1 – لقمان: 20

وبهذا يُعرف أن الحديث السابق وهو قوله ﷺ (**أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي، ثُمَّ أَمَرَنِي بِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ**). أصل جامع لجميع هذه العبارات، مستوف لسائر هذه التقسيمات والإشارات، ويُعلَم أن الأدب هو الجمع لمكارم الأخلاق والفعال، ومحاسن الصفات والخلال، على أتم ما يمكن من وجوه الكمال، في حق الله تبارك وتعالى وفي حق عبيده على التفصيل والإجمال، مع الوقوف في ذلك كله عند الحد المحدود فيه شرعا. فلا يُرتكب في شيء منه آداب العامة التي تبعدهم عن الله تعالى ﴿**وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً**﴾[1].

وقد كان سيدنا رضي الله عنه – كما في [جواهر المعاني] – لا يحب ارتكاب شيء منها أصلا اقتصارا منه رضي الله عنه على ما ورد في الشريعة، وتخلقا بأخلاق السنة الرفيعة.

وإذا عرف أن هذا الحديث الشريف أصل لجميع العبارات في الأدب على ما قُرّر، وعلم من ذلك أن الأدب هو الجمع لمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات على ما بُيّن وسُطّر، فيجب أن يُعلم أن منبع جميع الآداب المرضية، السجايا الصالحة المركبة في طبائع النفوس الزكية.

ولا شك أن السجية، باتفاق من أهل العلوم والنظر، هي فعل الله تعالى المحض الذي ليس شيء منه في طوق البشر. ولكن الله تعالى بنافذ قدرته، وصالح مشيئته، وبالغ حكمته، جعل لمن أهله من عباده للهدى والصلاح، وهيأه بفضله وكرمه للرشد والفلاح، استخراجَها بطريق الرياضة والتربية، واكتسابها من جهة المجاهدة والتزكية. وذلك – كما قاله في [العوارف]: "لأن الله تعالى خلق الإنسان وهيأه لقبول الصلاح والفساد، وجعله أهلا للآداب ومكارم الأخلاق. ووجود الأهلية فيه كوجود النار في الزناد، ووجود النخل في النوى. ثم إن الله تعالى بقدرته ألهم الإنسان ومكنه من إصلاح النوى بالتربية إلى أن يصير نخلا، والزناد بالعلاج حتى تخرج منه نار. وكما جعل سبحانه في الإنسان صلاحية الخير والشر أحال الإصلاح والإفساد عليه، فقال تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[2]، فتسويتها بصلاحيتها للشيئين جميعا. ثم قال تعالى ﴿**وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا**﴾[3]. فإذا تزكت النفس تدبرت بالعقل، واستقامت أحوالها الظاهرة والباطنة، وتكونت الآداب" اهـ.

وهذا الذي ذكره من أن الله تعالى أحال الإصلاح والإفساد على الإنسان كما دلت عليه الآية الكريمة هو المذهب الحق، والقول الأصح، من أن تبديل الأخلاق ممكن مقدور عليه، خلافا لمن منع مستدلا بظاهر قوله تعالى ﴿**لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾[4]، وبظاهر حديث (فرغ ربك من أربع)... الحديث.

---

1 – الكهف: **104**
2 – الشمس: **7-8**
3 – الشمس: **9-10**
4 – الروم: **30**

واستُدل لهذا القول – أعني القول بأن تبديل الأخلاق ممكن إلخ – بهذه الآية، أعني قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ من زَكَّاها وقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها**﴾[1]، وكذا بقوله سبحانه ﴿**يَا أَيُّها الذينَ آمَنُوا قُوا أنفسَكُمْ وأَهْلِيكُمْ نَاراً**﴾[2]. فقد رُويَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسيرها: "فقهوهم وأدبوهم" اهـ. ومما استُدل به له أيضا قوله ﷺ (**حَسِّنُوا أَخْلاَقَكُمْ**)... الحديث، وانظر [العوارف].

نعم، قد تقع الآداب في حق بعض الأشخاص – كما قاله فيها أيضا – من غير تزكية ولا رياضة لقوة ما أودع الله تعالى في غرائزهم قال: "ومن يحتاج إليها من الناس فإنما يحتاج إليها لنقصان قوة أصولها في الغريزة. ولهذا احتاج المريدون إلى صحبة المشايخ لتكون الصحبة والتعليم عونا على استخراج ما في الطبيعة إلى الفعل" اهـ. ملخصا.

ومدار التربية والتزكية، في طريقنا هذه المحمدية الشريفة المرضية، على:

– إقامة الورد الأصلي المعلوم، الذي لا يصح الدخول فيها بدونه لأحد من الخصوص ولا من العموم، وكذا توابعه من الأذكار المشمولة باللزوم معه، وهي الوظيفة المعروفة وذكر الهيللة بعد عصر يوم الجمعة، بالمحافظة في جميع ذلك على الشروط المشروطة، والآداب التي هي بغاية الحسن ونهاية الكمال منوطة. وآكد الشروط وأعظمها: المحافظة على الصلوات الخمس بأدائها على الحد المحدود لها شرعا بقدر الإمكان، واستكمال شروطها وآدابها، وإتمام جميع مالها من الأركان.

– ثم عمارة ما يُقْدَرُ على عمارته من الأوقات والساعات، بالصلاة على النبي ﷺ خصوصا بصلاة الفاتح لما أغلق التي هي من أسمى الذخائر وأسنى البضاعات، على طريق المحبة، والشكر، والاعتماد على الفضل المحض الذي ليس إلا عليه في بساط التحقيق المعول، من غير التزام خُلوة، ولا كثرة مجاهدة، ولا غير ذلك مما اصطلح عليه في التربية من بَعْدِ الصدر الأول. إذ هذه هي طريقة سيدنا رضي الله عنه التي سلكها وأمره بالتسليك بها سيد الوجود، ومنبع الإمداد والجود، ﷺ.

وفي [جواهر المعاني] أنه ﷺ، بعدما أعلم سيدنا رضي الله عنه بأنه هو الواسطة بينه وبين الله تعالى والمدد له على التحقيق، وصرح له بأنه هو كفيله ومربيه دون غيره من مشايخ الطريق، وأخبره أنه لامنة لواحد منهم عليه، لأن جميع ما يصله من الله تعالى فعلى يده ﷺ وبواسطته ومنه إليه، قال له في وصيته التي أوصاه بها: "الزم هذه الطريقة من غير خُلوة ولا اعتزال عن الناس حتى تصل مقامك الذي وعدت به وأنت على حالك من غير ضيق ولا حرج ولا كثرة مجاهدة" اهـ. ويرحم الله تعالى العارف البوصيري حيث قال في [داليته]:

---

1 – الشمس: **9-10**
2 – التحريم: **6**

والفضل ليس يناله متوسل بتورع حَرِج ولا بتَزَهُّد

إن قال ذاك هو الدواء فقل له كُحْلُ الصحيح خلاف كحل الأرمد

يمشي المصرَّف حيث شاء وغيره يمشي بحكم الحجْر مَشْيَ مُصَفد

من كان منك بمنظر وبمسمع ألَحَال منه على حديث مسند

وقد أشار إلى ذلك العلامة الشهير، العارف الكبير، سيد عبيدة بن محمد الصغير، مؤلف كتاب [ميزاب الرحمة الربانية] في [لاميته] التي امتدح بها سيدنا ﷺ فقال:

بلا خُلوة ربي وربوا بخلوة فشتان ما بين اليزيديين مِنْ هَلاً

ومرادنا يكون التربية في هذه الطريق، خالية عن التزام الخلوة والاعتزال عن الناس، ونحو ذلك مما فيه تشديد على النفس وتضييق، التنبيه على أن التربية فيها جارية على طريقة السلف الصالح من الصدر الأول التي هي الطريقة الأصلية، وهي طريقة الشكر والفرح بالمنعم سبحانه والرياضة القلبية، لا على الطريقة الأخرى التي استنبطها واصطلح على التسليك بها مَنْ بعدِ القرون الثلاثة نظراً لما اقتضته العوارض الوقتية، وهي طريقة المجاهدة والمكابدة والرياضة البدنية.

وفرق بينهما: بأن السير في الأولى سير القلوب، وفي الثانية سير الأبدان. ومعلوم أن الأهم الذي عليه المدار في طريق الوصول إلى حضرة الله تعالى هو سير القلوب، بالنظر في أحوال القلب، وما يصلحه، وما يفسده على سَنَن الاعتدال، والتقييدُ بالشريعة المطهرة، والسنة الشريفة المنورة، لا على التضييق على النفس بالتقشف، والاستخشان في المأكل والملبس، والكد والتعب، من غير التفات إلى أحوال القلب على الحد الذي تقرر.

وإنما آثر مَنْ بَعدَ القرون الثلاثة التسليكَ بالطريقة الثانية لما كثرت الأهواء، وتشعَّبت الآراء، فاستعانوا بذلك على تطهير النفس وتزكيتها، ليستنير القلب، ويتخلص من كدورات الهوى. وقد حذروا مع ذلك من الغلو فيه بالخروج عن حد الاتباع، إلى حد الابتداع.

قال الشيخ أبو عبد الله بن عباد رحمه الله تعالى: "وليس طريق تزكية النفس بقطع جميع الأرفاق عنها، وردها إلى الاجتزاء بأكل الحشيش والنخالة، والمبالغة في التقشف والتقلل، مع قطع النظر عن أحوال القلب، وهممه، وقصوده، وإرادته، وترك الالتفات إلى ما يمدح منها وما يذم. فذلك كله غلو وبدعة. وقد غَلِطَ في هذا طوائف من الناس عملوا عليه في رياضاتهم ومجاهداتهم، ولم يقصدوا بذلك إخلاص العبودية لربهم. فأدَّاهم ذلك إلى اختلال عقولهم، وانحلال قوى أبدانهم، ولم يَحْصُلوا من أمرهم على فائدة. وذلك لجهلهم بالسنة، وما كان عليه سلف الأمة" اهـ.

وفرق أيضا بين نتائجها: ويكفي أن الفتح في الأول هُجُومي، لم يحصل من السالك تشوف إليه، بخلافه في الثانية. وشتان ما بينهما.

وسيأتي لنا من مزيد بسط الكلام في التربية والتزكية، بهذه الطريقة الأحمدية، ما تقرّ به العيون، وتبتهج به الأرواح، وتستنير به القلوب. بفضل مولانا الملك الفتاح.

فبالسلوك على هذا السبيل الأحمد، والطريق الأقصد، يفيض في قلب السالك من الأنوار الوهبية، ما يحمله على محاسن الآداب، ويقف به من أداء الحقوق الحقية والخلقية على عين الصواب، فيصير أديبا متأدبا بإفاضة فيض كرم الله تعالى ومنه، وتوفيقه الجميل وعونه.

هذا، ولسنا نريد بكون التربية في طريقنا من غير خلوة ولا مجاهدة أنا لا نأخذ النفس بشيء من ذلك، ولا نعرّج في طريق السير والسلوك على شيء مما هنالك، كما قد يتبادر لذهن الضعيف الفهم، أو يحمله عليه المتعسف المولع بالاستناد إلى الوهم. كلا، ومعاذ الله. وإنما مرادنا أنا لا نلتزم في سلوكنا الرياضة بطريق المجاهدة على القانون الذي استنبطه واصطلح عليه مِنْ بعدِ القرون الثلاثة كما هو مقرر في محاله.

وإلا فالأخذ في الجملة بما ذكر من الخلوة والصمت والاعتزال، وغيرها مما دلت عليه السنة المطهرة من سيء الخلال، مؤكد عند شيخنا رضي الله عنه غاية التأكيد، مرغب فيه غاية الترغيب.

ومن ترغيبه فيه، وحضه على العمل به، ما في [جواهر المعاني] في الرسالة التي كتب بها رضي الله عنه إلى بعض فقهاء زاوية زرهون – عمرها الله بذكره – جوابا عن كتاب كتب به إليه رضي الله عنه، ولفظه فيه رضي الله عنه: "وأما ما ذكرت من صعوبة انقياد نفسك عليك لأمر الله، ودوامها على التخبط فيما لا يُرْضى، فتلك عادة جارية أقامها الله تعالى في الوجود لكل من أهمل نفسه وتركها جارية في هواها أن لا يسهل عليه سبيلا إلى القيام بأمر الله، بل لا يرى منها إلا الخبث والمعاصي والخروج عن أمر الله.

ومن أراد تقويم اعوجاج نفسه فليشتغل بقمع نفسه عن متابعة هواها، مع دوام العزلة عن الخلق، والصمت، وتقليل الأكل، والإكثار من ذكر الله بالتدريج، وحضور القلب مع الذكر، وحصر القلب عن الخوض فيما يعتاده من الخوض في أمور الدنيا وتمنيها وحبها، وحصر القلب عن الخوض في جميع المرادات والاختيارات والتدبيرات، وعن الخوض في أخبار الخلق، وزمِّ القلب عن الجزع من أمر الله تعالى. فبدوام هذه الأمور تتزكى النفس وتخرج من خبثها إلى مطابقة أمر الله، وإلا فلا ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**﴾[1] والشيخ في هذه الأمور دال ومعين، لا خالق ولا فاعل، إذ الخلق والفعل لله، والدلالة للشيوخ. والسلام" اهـــ بلفظه.

ومما وقفت عليه من كلامه رضي الله عنه في هذا المحط بخط يمينه المباركة في جواب لبعض خاصة الخاصة من أصحابه رضي الله عنه، ومنه نقلت ما نصه: "أما ما ذكرت من العوارض الحائلة بينك وبين ما تقصد من عمل الآخرة، فاعلم أن سببه ما تمكن من نفسك من الميل إلى الراحات، واقتحام ما تقدر عليه من الشهوات. فإنها سمعتْ أن مقام المعرفة بالله تعالى حاصل لها بلا تعب، فمالت إلى ما يقتضيه هواها من الراحات. فلو أنها علمت أن مقصودها من المعرفة بالله لا يحصل لها

---

1 – الفتح: **23**

إلا إذا جدَّت فيما هو من أمر الطريق معروف، وفارقت كل مألوف، لأجابت إلى ما يراد منها من المجاهدة، لأنها تريد الظفر بمطلوبها. فلما سمعت أنها يحصل لها دون تعب لم تجب إلى ما يراد منها من المجاهدة ومفارقة الحظوظ. فكل عارض لا بد من ظهور حكمه. فمن ظن أن قيام العارض بالقلب على حاله، يمكن معه ظهور نقيض حكمه، فقد جهل أمر الله عز وجل، ولم يحصل له من ظنه إلا التعب لا غير. ومثال العارض كالسحاب في السماء، ومثال ما وراءه من المجاهدة كالشمس، فإذا صحا السماء من السحاب طلعت الشمس، وإذا وقع السحاب دونها حال بيننا وبينها. فلا يمكن وقوع السحاب في السماء وطلوع الشمس صاحية من ورائه. وتعقل هذا وتأمله تستفد منه علما عظيما.

"وحيث قامت العوارض بالقلب من الميل إلى الراحات، واقتحام ما تقدر عليه من الشهوات، امتلأ القلب بصور الأكوان والميل إليها. وحيث وقع ذلك تمكن تخليط القلب في أمر الهوى، والبعد عن حضرة القدس وعن جميع مقتضياتها. فلا تزول منه هذه الأمور إلا بوارد الفتح الأكبر الذي يفيض معه بحر المعرفة بالله، وإلا فلا. فلا تطمع أن يَخْلُوَ قلبك من الظلام والكَدَر ما دامت في قلبك هذه العوارض. وحضرة الحق جارية على النِّسب، لا تخرج عن نَسَبها.

"واعلم أن مراد الله منك في هذا الوقت ما أنت فيه. فوقوفك بعبوديتك فيما أقامك الله فيه في وقتك هو أولى بك وأمكن من رمي فكرك إلى مطلب قَطَعَتْكَ دونه العوارض، ولم تحصل منه على طائل. فسلم الأمر إلى الله، واعلم أن ما تطلبه له أجل ومقدار، إذا جاء وقته جاء، ولا يتعجل بطلب تعجيلك.

"وإن رمت الخروج عما أنت فيه إلى تنوير القلب، وصفائه، فاذهب وانقطع عما سوى الله تعالى في مكان لا ترى فيه أحد. وألزِم نفسك إخراج مرادك مما سوى الله تعالى، واستغرق أوقاتك في الذكر المفرد، ترى العجب من تمكين الصفاء. فإن لم تساعفك نفسك على هذا، فاعلم أن مراد الله منك ما ذكرنا. واترك عنك ما يتغلغل في قلبك من خواطر السوء المفضية إلى سوء الأدب مع الله تعالى، ومعنا، بطلبك أمورا لا نسبة لها فيك، بل ليس فيك إلا نسبة نقائضها:

لقد رمت الصاد بغير حرث ... يغوص البحرَ من طلب الآلي

وهذا القدر كاف إن فهمت" انتهى، من خط سيدنا ﷺ بلفظه في الجواب المذكور.

وفي هذا القدر كفاية فيما يشير إلى ما ذكرناه، ويحقق ما قدمناه، من أن المراد يكون التربية في هذه الطريقة الأحمدية خالية عن المجاهدة والرياضة المصطلح عليها عند مَنْ بعْدِ الصدر الأول، هو أن المعتمد فيها ما تقدم شرحه من الرياضة القلبية، والسلوك على الطريقة الأصلية. وذلك لا ينافي العمل بما دلت عليه الشريعة المطهرة، واقتضته آداب السنة في الجملة، من الصمت، والاعتزال عن الناس، ونحو ذلك. مع المحافظة في ذلك على عدم الخروج فيه إلى

حد التفريط فيه أو الإفراط، والتحرز مما يشير إلى رؤية النفس من إظهار التعزر والانبساط، فحقق هذا المناط، فإنه مهم جدا، والله الموفق.

وأما ما عليه المدار في التزكية والتصفية فيما عدا هذه الطريق من طرق الأولياء الأخيار، والمشايخ الكبار، فإنه مذكور في غير ما كتاب، من كتبهم التي ألفوها في هذا الباب.

وبالجملة فالاتفاق واقع من المشايخ الكاملين، والعارفين الواصلين، على أن مطالعة كتب القوم، وسماع الحكايات والمواعظ في الأدب، لا تعمل وحدها في النفس كبير تأثير يرجى نفعه في المنقلب، وإنما ينفع في ذلك بفضل الله تعالى السلوك بالأعمال المشروعة الفاضلة، مع الاستعانة فيه بهمم العارفين المقربين الموصوفين بالمشيخة الكاملة.

فلا محالة أن النفس إذا أُخذت بذلك على بابه، واستعانت فيه بهمم سادات هذا الشأن وأربابه، نبع منها ماء الحياة الهنية، وتحلت بحلية أهل المراتب السنية، فقامت بواجب آداب جميع الحضرات أتم قيام، واستعدت لتوالي الإمدادات الوهبية الفائضة عليها من حضرة الملك العلام، فتقَرُّ عينُها من فضل الله تعالى ببلوغ كل مرام.

وهذا القدر كاف في الكلام على حقيقة الأدب، وبيان منشإه عند أهل الرتب.

وأما بيان مكانته من طريق أهل الكمال، فقد تقدم في أول المطلب أنه باتفاق من سادات الرجال، نظام جميع الأعمال، وملاك سائر المقامات والأحوال. وفي الحديث عن معاذ ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ **(حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب)**". وقال سيدنا أنس بن مالك ﷺ: "الأدب في العمل، علامة قبول العمل".

وقال عبد الله بن المبارك ﷺ: "من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة".

وقال أبو علي الدقاق ﷺ: "العبد يصل بطاعته إلى الجنة، وبأدبه في طاعته إلى الله تعالى".

وقال بعضهم: "التوحيد يوجب الإيمان، فمن لا توحيد له لا إيمان له. والإيمان يوجب الشريعة، فمن لا شريعة له لا إيمان له، ولا توحيد له. والشريعة توجب الأدب، فمن لا أدب له لا شريعة له، ولا إيمان له، ولا توحيد له".

وقال الشيخ أبو الحسن النَّوْري ﷺ: "ليس لله تعالى في عبده مقام ولا حال ولا معرفة تَسْقُطُ معها آداب الشريعة، إذ الآداب حلية الظاهر، والله تعالى لا يحب تعطيل الجوارح من التحلي بمحاسن الآداب". وقال أيضا رحمه الله تعالى: "من لم يتأدب للوقت، فوقته مقت".

وقال ذو النون المصري ﷺ: "إذا خرج المريد عن حد استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء".

وقال أبو علي الدقاق ﷺ: "ترك الأدب، موجب للطرد، فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب".

وقال بعضهم: "الزم الأدب في الظاهر والباطن، فما أساء أحد الأدب في ظاهر إلا عوقب ظاهرا، وما أساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنا".

وقال رُؤَيْم ﵁: "يا بني، اجعل عملك ملحا، وأدبَك دقيقا".

وقال ابن المبارك ﵁: "نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم". وقال أيضا رحمه الله تعالى: "الأدب للعارف، بمترلة التوبة للمستأنف" اهـــ.

فهذه كلها نصوص صريحة، وأقوال مؤيدة بنور الإلهام مسددة صحيحة، مفصحة أي إفصاح يعلو مكانة الأدب من الطريق، وسمو قدره لدى فحول هذا الفريق، مصرحة بأن جميع الأعمال الدينية، الموصلة إلى الحضرة القدسية، قلبية كانت أو بدنية، قولية أو فعلية، لا يُعتبر شيء منها في بساط التحقيق إلا محفوفا بالمحاسن الأدبية، والمحامد الصفاتية، والمكارم الخُلُقية، وبأن تحلية العمل بالأدب عاجلا، علامة قبوله آجلا، وبأن الأدب كما يحتاج إليه المريد المبتدئ في أحوال بدايته، يتوقف عليه المنتهى في مقامات نهايته، لأنه كما تقدم عن ابن المبارك رحمه الله تعالى في حق العارف، بمترلة التوبة في حق المستأنف. فكما أن المستأنف لا يصح منه الاستئناف في الخير إلا بالتوبة – أي الرجوع من كفران النعم بارتكاب المخالفات، إلى شكرها بالتزام القيام بأنواع العبادات والطاعات –، فكذلك العارف لا ترسخ قدمه في مقامات العرفان، إلا بالتزامه الأدب فيما قل أو جل من أعمال القلوب والأركان. إذ لا شك أن أدب كل إنسان، دليل على قدر درجته في مقام الإحسان، ووسع دائرته في مراتب العرفان.

ومما يزيدك تحقيقا بهذا الذي أشرنا إليه في الطريق من علو مكانة محاسن الآداب، وأنها لمريد الوصول إلى حضرة رب الأرباب، من أهم المهمات وأقوى الأسباب، ما قرره فرسان هذا الميدان، وعلماؤه الجهابذة الأعيان، من أن لكل مترل من منازل مقامات الدين، آدابا تختص به عند المحققين.

فمما يخص أول المنازل الثلاثة **لمقام الإسلام**، وهو مترل **التوبة** التي هي كالأرض لبناء كل حال ومقام، ترك صحبة الأقران الذين كان الفهم على التقصير، ومواصلة من يوافقه في طلب مرضاة الله تعالى على الجد والتشمير، واجتناب مواضع اللهو والمجون، وعدم ذكر شيء من لذاته السالفة إلا بقلب متحسر محزون. فهذه أربعة آداب، لا يصح الاستئناف في الخير مع ترك شيء منها لذى متاب.

ومما يختص بثاني المنازل لهذا المقام، وهو مترل الاستقامة ظاهرا وباطنا في معاملة خالق الأنام: متابعة الحبيب عليه الصلاة والسلام. في كل ما يرجع إلى العبادة والعادة من قول وفعل وحركة وسكون. بطريق المثابرة والدوام، إذ لم يصدر عنه ﷺ باتفاق من أهل العرفان، فعل لا عبودية فيه كيف ما كان. والأخذ بالأعم فالأعم من الأقوال والأفعال، والقصد لتعديل الحركات والسكنات بالمتابعة في عموم الأوقات والأحوال، والبناء في أمر المتابعة على ضبط النفس بالضوابط الشرعية، ودفع الخواطر العارضة عند التلبس بالإتباع بإمضاء العزم، وإلغاء الوهم، بالوقوف في ذلك كله عند الحدود المرعية. فهذه آداب خمسة، لا يصح لمن أخل بشيء منها أن يحلي بالاستقامة معناه ولا حسه.

ومما يختص بثالث هذا المنازل، وهو مترل **التقوى** التي هي شعار كل نبيه ومرمى قصد كل ماجد وفاضل: الاحتياط لبراءة الذمة. بالتحفظ من الشبهات التي هي الوسائط المشكلة

بين طرف الحلية والحرمة، والتوقي بقدر الإمكان من فضول الحلال، وتجنب الإفراط والتفريط في سلوك سبيلها بكمال الاعتدال والتستر بذلك وسع الإمكان، ليسلم من الرياء وجدال العامة من أبناء الزمان. فهذه أيضا آداب أربعة، لا تصح التقوى لمن لم يكن جميعها معه.

ومما يختص بأول منازل **مقام الإيمان**، وهو مترل **الإخلاص** الذي هو تصحيح الوجهة إلى الله تعالى على وصف العبودية الخالصة في السر والإعلان: الجزع من سلب الإخلاص بسابقة الإهمال، والإتهام للنفس فيما تدعيه من توفية حق الإخلاص على نعت الكمال، واللجأ إلى الله تعالى من ذلك كله بالفزع إليه سبحانه بالدعاء والضراعة، والمطالبة للنفس بالإخلاص في المباحات والعادات بقدر الاستطاعة، إذ هو الإكسير الكبير لأهل هذه الصناعة، لأنه يخرق أعيان المباحات والعادات، فيحيلها عبادة تامة من أجل القربات، وأخص الطاعات. فهذه أربع خصال، لا يمكن تصحيح الوجهة إلى الله تعالى مع الإخلال بشيء منها بحال.

ومما يختص بثاني المنازل الإيمانية، وهو **مترل الصدق** الذي هو صفاء المعاملة مع الله تعالى من امتزاج الخواطر النفسانية: حفظ الوقت من الخواطر، وتعلق القلب بعالم السرائر، وتلمح الحكم من مختلفات الوجود، واهام النفس في توفية حقوق الخلق على الحد المحدود، وترك الإجتهاد بالتأويل، حفظا لرسوم القوم من التغيير والتبديل. فهذه خمسة آداب، لا يصح لمن ترك شيئا منها صفاء المعاملة مع رب الأرباب.

ومما يختص بثالث منازل الإيمان، وهو مترل **الطمأنينة** التي هي سكون القلب إلى ثَلْج اليقين سكونا عاريا عن الإضطراب، وثلجا يُشبه العيان: الحرص على العمل الظاهر والباطن بالتزام الأدب فيه على طريق الملازمة والمواظبة، ومباحثة الأنفاس في التصفية خشية الفضيحة عند ورود سلطان المراقبة، وعدم الإكتراث بالطمأنينة. عند حركة الانتهاض إلى مبادئ المراقبة، والسعي إلى مراقيها المكينة، وخمود نار الفكرة بورود نار معنى الذكر من غير أن يبلغ به مبلغ السُّكر. فهذه خصال أربع، من استوفاها فقد استوفى الخير أجمع. وذلك لأن مترل الطمأنينة من أعظم أبواب الولاية، إذ هو أول منازل المُراد المواجَه بأنوار العناية، ومنه يتنسم المريد السالك روائح القرب، وتَبْرُقُ عليه بوارق مشاهدة سَنَى حضرة الرب.

ثم إن لكل مترل من منازل **مقام الإحسان**، آدابا تختص به أيضا عند أهل العرفان: منها الكتم لما يظهر ويلوح من مبادئ الأسرار هنالك، وتتره الروح عن الإلتفات إلى شيء مما كتمه من ذلك. ومنها الثبوت عند أول الواردات التي تغدو عليه من حضرة المعارف وتروح، والرجوع إلى الشاهد عند ما تضعُف منه عن تحمل أعباء المشاهدة الروح. ومنها، وهي من آكد الآداب في مترل المعرفة وأكملها، إعطاء الحكمة أهلَها ومنعها من غير أهلها.

ولمنازل هذا المقام آداب أُخَر يقصر عن شرح حقيقتها في هذا المحل اللسان، ولا يفيد في إيضاح ماهيتها البيان. فمن الأدب هنا أن يُثْنَى عن ذكرها العنان، إحالة على الذوق والوِجدان، واكتفاء بما يحصل للصادقين من طريق المشاهدة والعيان.

ستكفيك من ذاك الجمال إشارة … ودعه مصونا بالجلال مُحجَّبا

وبهذا تظهر بعون الله تعالى مكانة الأدب من الطريق، ودرجته من مقامات السلوك على التحقيق. والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق، والهادي إلى سواء الطريق.

المطلب الثالث

فِي الإِشَارَةِ إِلَى نُبْذَةٍ مِنْ آدَابِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ، وَبَعْضِ مَا اتَّصَفَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ أَهْلُ الْمَرَاتِبِ السَّنِيَّةِ

لما قدمنا في المطلب قبل هذا ما فيه بحمد الله تعالى الكفاية العميمة، من الكلام في حقيقة الأدب ومعرفة منشئه وبيان مكانته الفخيمة، وكانت مطالعته داعية بتوفيق الله تعالى إلى التعلق بحبله المتين وسببه القوي، والانتهاج لنهجه الأقوم وسبيله السوي، أحببت أن أرْدِفَه مما أذكره في هذا المطلب بما يكون إن شاء الله تعالى عونا للمريد الرَّاغب في كمال الاقتداء على ما يرومه من تحقيق المتابعة لأئمة الاهتداء. فأقول، مستعينا بحول القوي المعين، معتمدا على فضله الواسع وفتحه المبين:

أعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين هم صفوة الله تعالى من البرية،أكمل الناس آدابا مع الحضرة المقدسة العلية، وأتم قياما بحقوقها ووظائفها المرعية، من سائر من عداهم من أهل المراتب السنية، حسبما نطق به القرآن العظيم، وأفصحت به آيات الذكر الحكيم.

قال مولانا جل جلاله فيما خاطب به حبيبه المصطفى الكريم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] قال في [العوارف]: "قال مجاهد: أي على دين عظيم، والدين مجموع الأعمال الصالحة، والأخلاق الحسنة. وقال الحسن: لأنك لم يؤثر فيك جفاء الخَلْق، مع مطالعة الحق. اهـــ وهذا غاية في كمال أدبه ﷺ".

وقال الواسطي: "الخُلُقُ العظيم أن لا تخاصِم ولا تخاصَم. وقال أيضا: لأنك قبلت ما أسديت إليك من نعمي أحسن مما قبله غيرك من الأنبياء والرسل".

وقال الجنيد: "لأنه لم يكن له همة في سوى الله تعالى" ولا محالة أن من كان بهذه المثابة كان أجمع لمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب على الوجه الأكمل.

وقيل في تفسير هذه الآية الكريمة غير هذا. فقيل: لأنه ﷺ عاشر الخلق بخُلُقه، وباينهم بقلبه. وقيل: "سمي خلُقُه عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه" اهـــ.

وقد تقدم لنا في حقيقة الأدب أنه الجمع لمكارم الأخلاق، ومحاسن الفعال والخلال، على أحسن ما يكون من وجوه الكمال، والآية الكريمة على مجموع هذه التفاسير دالة على ذلك أتم دلالة وأوضحها. فهي إخبار من الله تعالى بأن حبيبه ﷺ مجمع الآداب ظاهرا وباطنا، وأنه ﷺ أكمل الخلق أدبا، وأتمهم قياما به مع الحق ومع الخلق على الوجه الذي لا يدركه غيره، والله تعالى أعلم.

---

1 – القلم: 4

وقال مولانا جل علاه: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾[1] وفي هذه الآية الكريمة أيضا إخبار من المولى الكريم الأعظم، عن كمال أدب حبيبه الأكرم، ﷺ. قال في [العوارف]: "وهذه غامضة من غوامض الأدب اختص بها ﷺ" ثم قررها بما ملخصه: إنه ﷺ لكمال اعتدال قلبه المقدس في الإعراض والإقبال، كان حاله في كلا الطرفين أتم الأحوال. فكما أعرض عن كل ما سوى الله تعالى أتم إعراض وأكمله، فكذلك أقبل عليه سبحانه وتعالى أحسن إقبال وأجمله. فترك ﷺ في إعراضه الأرضين والسموات وما فيهن من وراء ظهره، و لم يزغ بصره، ولا التفت إلى شيء مما أعرض عنه. ولا لحقه الأسف عليه في سره ولا جهره، وأدرك في إقباله مما ورد عليه في مقام قاب قوسين من المَنح والمواهب والأسرار، مالا تحيط به العقول. ولا تكيفه الأفكار. فلم يَطْغَ ﷺ بالانبساط، ولا أخل بشيء من آداب جلالة البساط. وذلك أنه ﷺ تلقى تلك المواهب التي وردت عليه من حضرة الرب، في خَجَال من حيائه، وخَفارة من أدبه بالروح والقلب. ثم فر من الله تعالى هيبة وإجلالا، فطوى نفسه بفراره، في مطاوي انكساره وافتقاره، لئلا تنبسط النفس بالاستغناء، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[2]. ولا شك أن الانبساط من العبيد، يسد باب المزيد. وهذا الفرار بالنفس على ما وصفناه، هو الفرار من الله إلى الله. وهو نهاية الأدب. وقد حضي منه ﷺ بما لم يحظ به أحد قبله ولا بعده من أهل الرتب. فدام له من ربه سبحانه وتعالى المزيد ونال منه غاية الأرب اهــ ما لُخِّص من [العوارف].

ونقل فيها بعده عن سهل بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال في الآية الشريفة: "لم يرجع ﷺ إلى نفسه ولا إلى مشاهدة أوصافها، وإنما كان مشاهدا بكليته لربه، يشهد ما يظهر عليه من الصفات التي أوجبت له الثبوت في ذلك المحل. قال صاحب [العوارف]: "وهذا الكلام لمن اعتبره موافق لما شرحناه برمز في ذلك من سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى ورضي عنه اهــ.

وقال الشيخ محي الدين رضي الله عنه فيما يتعلق بمعنى الآية الكريمة ما نصه: "من أدب من يجالس الأكابر الهيبة والوقار، فلا يلتفت ولا يشغل سره بمشاهدة غير جليسه. ومن شأنه عصمة قلبه من الخواطر، وعقله من الأفكار، وجوارحه من الحركات، وعدم التمييز بين الحسن والقبيح، ويجمع أعضاءه اجتماعا يسمع له أزيز كأزيز القدر الذي يغلي على النار. ومن شأنه أن لا يحصل له عند المباسطة إدلال، قال تعالى ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾[3]" اهــ. فأشار رضي الله عنه في هذا الكلام إلى جملة من آداب الحضرة مما تشير إليه هذه الآية الشريفة.

وبالجملة فهذه الآية الكريمة قد دلت على ما يضيق عنه نطاق التعبير، من كمال أدبه ﷺ الدال على كمال معرفته بربه سبحانه، المعرفة التي لا مطمع فيها لأحد من الخلق كائنا من

---

1 – النجم: **17**
2 – العلق: **6-7**
3 – النجم: **17**

كان. وقد قيل: "أدب الإنسان، دليل على قدر اتساع دائرته في مقام العرفان". وقيل في معنى الآية الكريمة غير هذا مما لا يمكننا في هذه العُجالة استيفاؤه.

وللمشايخ الكمل ﷺ من العبارات في كمال أدبه ﷺ مع الحضرة الإلهية ما لا يكاد يدركه حصره ولا استقصاؤه. وعلى هاتين الآيتين الكريمتين، مدار كلام من عَبَّر عن ذلك من فحول الطريقتين.

ومن أجمع العبارات وأوعبها في هذا الباب، عبارة شيخنا قطب الأقطاب، رضي الله عنه وأرضاه، ونفعنا وسائر الأحبة برضاه. ونصها كما في [جواهر المعاني]: "اعلم أنه ﷺ لما كمل خلوصه إلى أوطان القرب والتمكين من حضرة الله تعالى التي لا مطمع فيها لغيره. كان قائما فيها بتكميل الأدب وتكميل وظائف الخدمة في كل ما برز وما يبرز من الحضرة من الأسرار والتوقعات والتجليات في ظاهر العلم وباطنه وباطن الحضرة الإلهية، فلا يفتر عن ذلك مقدار طرفة عين، ولا يقع منه التفريط في حق من حقوق التجليات. كلما برز من التجليات شيء على كثرتها وعدم نهايتها يعطيه حقه من العبودية من غير إخلال ولا ضعف. ولا تزحزح مًّا عن موقف الكمال".

فإن أطوار الوجود بكل ما تطور به من خير أو شر، أو جلب أو دفع، أو إعطاء أو منع، أو تحريك أو تسكين، أو تلوين، إلى سائر أقسام التطورات مما يعرفه العامة في ظواهر الوجود، وما يتطور في بواطن الوجود من الإرادات والتخيلات والتوهمات والخواطر والأفكار، كل ذلك تجليات الحق سبحانه وتعالى بآثار صفاته وأسمائه. ما ثم غيره سبحانه وتعالى في كل ما سمعت. وهو ﷺ في موقف كماله دائما أبدا سرمدا يعطي جميع التجليات حقها، ويوفي أدبها، وهو في كل ذلك لله وبالله". انتهى كلام سيدنا رضي الله عنه بلفظه في [جواهر المعاني].

ويكفي هذا القدر الذي ذكرناه في هذا المحل مما أشارت إليه الآيات القرآنية، من كمال أدب نبينا ﷺ مع الحضرة الربانية.

ومما ذكروه في هذا المقام، من آدابه وآداب غيره من الأنبياء الكرام، عليه وعلى جميعهم من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام، آدابهم الظاهرة القولية، التي هي رشحة آدابهم الباطنة القلبية.

وذلك مثل ما روى عن نبينا ﷺ من قوله (**زُوِّيَتْ لِيَ الأَرْضُ فَأُرِيتُ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا**) قالوا: "قد حفظ ﷺ أدب الحضرة حيث لم يقل: فرأيت".

ومثل قوله سبحانه وتعالى حكاية عن نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام ﴿**أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾[1]. قال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه: "قد حفظ نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام أدب الحضرة حيث لم يقل: ارحمني".

---

1 – الأنبياء: **83**

ومثل قوله تبارك وتعالى حكاية عن نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾[1]. قال الشيوخ: "قد حفظ نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام أدب الحضرة حيث لم يقل: لم أَقُلْهُ.

إلى غير ذلك من الآي الكريمة، الدالة على آدابهم الفخيمة، على جميعهم وعلى آل كل من المولى الكريم، البر الرحيم، أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وأكمل الناس اقتداء بهم في هذا المقام، الصحابة الكرام، ﷺ ونفعنا بمحبتهم جميعا، ومما أثبتوه من ذلك: قول مولاتنا عائشة الصديقية رضي الله عنها لمن سألها عن خُلق رسول الله ﷺ: "كان خلقه القرآن". قال في [العوارف]: "لا يبعد – والله أعلم – أن قول عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن، رمز غامض، وإيماء خفي، إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت رضي الله عنها الحضرة الإلهية من أن تقول: كان متخلقا بأخلاق الله تعالى، فعبرت عن المعنى بقولها: كان خلقه القرآن، استحياء من سبحات الجلال" اهـــ.

تنبيه

كثيرا ما يجري في إطلاقات الأكابر كالشيخ محيي الدين ﷺ وكذا غيره من الأكابر كشيخنا ﷺ، حسبما ستقف على بعضه في هذا الكتاب إن شاء الله، ذكر التخلق بالأخلاق الإلهية. ومعنى ذلك عند المحققين: أن العبد يأخذ من بعض الأسماء الحسنى، والصفات العُلا، وصفا يلائم ضعف البشر وقصوره، مثل أن يأخذ من الاسم الرحيم وصفا من الرحمة على قدر ضعف البشر وقصوره، وهكذا في سائر الأسماء التي يصح التخلق بها للعبد. وكل إشارات العارفين في الأسماء والصفات التي هي أعز علومهم على هذا المعنى وهذا التفسير. فليحذر العبد أن يميل بقصور فهمه، وتخيلات وهمه، إلى شيء مما يعطيه ظاهر عبارات الكمل ﷺ من الحلول والاتحاد، فيجره ذلك، والعياذ بالله تعالى، إلى الزندقة والإلحاد.

ومن هذه الآداب التي اتصف بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، واقتدى بهم فيها أتم اقتداء أكابر الصحابة الكرام، أخذ أهل الطريق آدابهم، ومن أنوارهم اقتبسوها، وعلى مذاهبهم المكينة بنوا قواعدهم في ذلك وأسسوها. فعَمروا ظواهرهم وبواطنهم بحسن الأدب مع أساتذهم ومشايخهم، وحافظوا على ذلك بقدر جهدهم واستطاعتهم. فأوصلهم حسن الأدب مع مشايخهم إلى حسن الأدب مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ في جميع حركاتهم وسكناتهم، فظهرت بسبب ذلك جواهر حقائقهم، فاستحقوا التقدم على غيرهم، والترؤس على أبناء جنسهم.

فأما حسن أدبهم مع أساتذهم، فمن أمثلته التي ينتحي المريد الموفق منحاها، وينتهج نهجها القويم مقتبسا من نور سناها، ما ذكره في [العوارف] عن أبي منصور المغربي من أنه قيل

---

1 – المائدة: 116

له رحمه الله تعالى: "كم صحبت أبا عثمان" فقال: "خدمته لا صحبته. فالصحبة مع الإخوان، ومع المشايخ الخدمة" اهـــ.

وهذا ينظر إلى ما روي في بعض الأخبار عن سيدنا العباس عم نبينا ﷺ أنه قيل له: "أأنت أكبر سنا أم النبي ﷺ" فقال: "هو أكبر مني، وأنا ولدت قبله" اهـــ.

وأما حسن أدبهم مع الحضرة القدسية العلية، فمنه ما ذكروه من آدابهم الفعلية، التي هي عنوان آداب بواطنهم المطهرة السنية.

ذكر الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه عن الأستاذ أبي علي رضي الله عنه أنه كان لا يستند إلى شيء أدبا مع الحضرة الإلهية. قال: "وكان يوما في مجمع، فأردت أن أضع له وسادة خلف ظهره لأني رأيته غير مستند، فتنحى عن الوسادة قليلا. فتوهمت أنه توقى الوسادة لأنها لم يكن عليها خرقة أو سجادة، فقال: لا أريد الاستناد. فتأملت بعد ذلك فعلمت أنه لا يستند لشيء أبدا" اهـــ.

وقال السري السقطي رضي الله عنه: "صليت وردي ليلة من الليالي ومددت رجلي في المحراب، فنوديت: "يا سري كذا تجالس الملوك" فضممت رجلي، ثم قلت: "وعزتك لا مددت رجلي أبدا". قال الجنيد رضي الله عنه: "فبقي ستين سنة ما مد رجله ليلا ولا نهارا". اهـــ.

وذكر عن السري أيضا رضي الله عنه أنه سئل عن مسألة من الصبر، فجعل يتكلم فيها، فدب على رجله عقرب فجعل يضربه بإبرته. فقيل له: "ألا ترفعه عن نفسك" فقال: "أستحي من الله تعالى أن أتكلم في حال ثم أخالف ما أعلم فيه" اهـــ.

وحُكي عن بعض الشيوخ أنه قال: "دخلت مكة، فكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة، وربما كنت أستلقي وأمد رجلي، فجاءتني عائشة المكية فقالت لي: يا أبا فلان، يقال إنك من أهل العلم، لا تجالسه إلا بالأدب، وإلا محي اسمك من ديوان القُرْب". قال: "وكانت من العارفات رضي الله عنها" اهـــ أنظر [العوارف].

ومن هذا ما ذكره في [جواهر المعاني] من وصف آداب سيدنا رضي الله عنه حيث قال بعد سرده لجملة من آدابه: "وما رُيِءَ قط مادّاً رجله إلى القبلة، وما بَصَق قط وهو جالس بالمسجد، ولا رفع به صوته، وما سمع أحدا يرفع به صوته إلا نهاه، وما رأى أحدا أخل بشيء من آداب الشريعة إلا نبهه، ويقول له إذا كان له معرفة بها على سبيل الإنكار والتوبيخ: أهكذا ورد في السنة" اهـــ.

وانظر ما يشير إلى بعض آدابه رضي الله عنه مع حضرة الله تعالى وحضرة رسول الله ﷺ، وكذا مع أولياء الله تعالى في [جواهر المعاني] وغيره تعثر على معرفة حقيقة الأدب، وتر من ذلك ما تُقَضِّي منه العجب.

ويكفي من آدابه مع الحضرة العلية، أخذه بكمال الاحتياط في الطهارة ثوبيَّة ومكانيَّة وبدنيَّة، وأمره بذلك في جميع العبادات والتوجهات فعلية كانت أو قولية، وذلك مع الشائع

الذائع عنه وعن أصحابه ﵃، وكذلك أخذه بالاحتياط في جميع المعاملات الدينية والدنيوية، مما لا يسعنا الآن تفصيل بعضه فضلا عن كله.

ويكفي في كمال أدبه مع حضرة الرسول ﷺ مبالغته في تعظيم أهل البيت الطاهر، ولهجه دائما بما خصهم الله به من سني المحامد وفاخر المآثر، وحضه على ذلك في سائر أوقاته وأحواله، وحثه الناس على إمحاض الود لهم ودلالته على ذلك بألسنة حاله ومقاله.

فكان ﵁ يكرم الداخل منهم عليه بأسمى المجالس وأخصها، ولا يترك أحدا منهم يجلس بأدناها وأخسها، وما ترك أحدا منهم يجلس بإزاء رجليه أو في محل امتهان، على أي حال كان. ولم يكن ﵁ يساوي بخصوصيتهم الذاتية خصوصية، ولا بمزيتهم الأصلية مزية. وسيأتي بعض ما يتعلق بهذا أثناء الشرح إن شاء الله تعالى.

ويكفي في كمال أدبه مع أولياء الله تعالى حضه على تعظيمهم وتوقيرهم، أحياء كانوا أو أمواتا، وعدم مسامحته في الاستهزاء بهم، والاستهانة بقدرهم. وكان ينهى من يسكن بجوار واحد منهم أن يمد رجليه إلى جهته، ولو أداه ذلك إلى مخالفة ما جرت به العادة في نوم الناس في محالهم، كأن يجعل رأسه إلى باب البيت مثلا. لا يغفل عن ذلك ﵁ أبدا.

وقد أخبرني بعض الأفاضل من أعيان أصحابه ﵁ أنه اتفقت له السكنى بدار مجاورة لضريح مولانا إدريس ﵁ على عهد الشيخ ﵁، وكان البيت المعد للسكنى من تلك الدار مقابلا للضريح المعظم. فلما أُعلم الشيخ ﵁ بذلك أعظمه غاية، لأن من لازم من نام بذلك البيت أن يمد رجليه إلى جهة الضريح الأبرك. ثم أكد ﵁ على الصاحب المذكور أن لا يمد رجليه إلى ناحية الضريح في نوم ولا يقظة. وبعد مدة يسيرة أدخلت الدار المذكورة في المسجد الإدريسي، فكان بعض المحبين يرى أن ذلك من أثر تحرك همة الشيخ لذلك. ولا بعد فيما رآه هذا المحب عند من فتح الله بصيرته، ورزقه الإيمان الكامل بكرامات أولياء الله تعالى، وأُلهم التصديق بأن الأشياء تنفعل لتحرك هممهم العوالي، بإذن مولى الموالي، سبحانه وتعالى.

هذا، ولو تتبعنا ما نقل عن المشايخ ﵃ في هذا الباب، واستوعبنا ذكر ما اتصف به سيدنا ﵁ من سني الآداب، لخرجنا إلى حد الإطناب. مع أن القصد إنما هو الإلمام بشيء مما عسى أن يكون للناظر في هذا الكتاب. تنبيها وتذكرة، وإعانة له على ما هو بصدده من فهم مسائل هذا النظم وتبصرة. والله تعالى المستعان، وعليه سبحانه التكلان.

إلحـاق

مما ينبغي أن يندرج في هذا المطلب وينساق، ما حكاه في [العوارف] عن الشِّبْلي ﵁ من قوله: "الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب". يريد رحمه الله تعالى في بساط الدعاء والطلب. قال فيها أعني [العوارف]: "وهذا يختص ببعض الأحوال والأشخاص دون البعض، وليس على إطلاقه، لأن الله تعالى أمر بالدعاء" اهـــ.

وقال الشيخ زروق ﵁ بعد ذكره ما ورد في حق الخليل عليه الصلاة والسلام حين زُجَّ به في المِنْجَنيق فتلقاه جبريل عليه السلام وقال له: "ألك حاجة" فقال: "أما إليك فلا، وأما

إلى الله فبلى"، فقال له: "إذن فاسأله"، قال: "حسبي من سؤالي، علمه بحالي"، ما نصه: "وهو طريق العارفين عند تعذر الأسباب، أعني الرجوعَ إلى الله تعالى بالاستسلام وترك الطلب، بخلاف حال قبول المُحل الأسباب، فإن العمل بها حينئذ مطلوب". قال: "واعتبر ذلك بأمر أم موسى عليه السلام بإلقائه في البحر، وإجابة الملائكة للوط عليه السلام بقولهم ﴿قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[1] عند قوله لقومه ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾[2] الآية، فهو صلوات الله عليه أراد مقابلتهم بالأسباب، فأجيب بنفوذ الأمر وأنه لا محل لها. ولذلك أشار النبي ﷺ بقوله: (**يَرْحَمُ اللهُ أَخِي لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**) على معنى أن ترحمه عليه إنما كان لظنه أن الأسباب بقي لها محل لا كما فهمه من لا حقيقة عنده.

ثم قال: "والتوجهات ثلاثة:

أولها: التوجه بالاستسلام، وذلك عند تعذر الأسباب كما تقدم.

الثاني: التوجه بالسؤال والطلب، وذلك عند انشراح الوقت وجريانه بالمعتاد، وفي موقف تذكير النفس بالافتقار والاضطرار عند غفلتها عن التوحيد، أو يكون البساط بساط تعليم أو تذكير ونحوه.

الثالث: التوجه بالتعريض، وذلك حين يغلب حسن الظن، والاكتفاء بالعلم، وتحقيق التوحيد، والاشتغال بالذكر. كقول سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[3]، وكقول سيدنا موسى عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[4]، وكقول نبينا ﷺ (**لاَ غِنَى لِي عَنْ عَافِيَّتِكَ، عَافِيَّتُكَ أَوْسَعُ بِي**) اهـ كلام الشيخ زروق رضي الله عنه.

ولا يخفى أن كل توجه لحال أو وقت هو الأدب في تلك الحال أو ذلك الوقت. وبهذا الذي نقلناه عن الشيخ زروق رضي الله عنه يظهر ما أشار إليه الشِّبلي رحمه الله تعالى ورضي عنه، ويعرف أنه ليس على إطلاقه كما تقدم عن صاحب [العوارف].

نعم يحتاج التوجه بالسؤال والطلب إلى آداب تخصه:

- منها الإخلاص: قال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ﴾[5] الآية. قال في [تَهذيب الأذكار]: "وإخلاص الدعاء إلى الله تعالى أن يُخْلِصَ الدعاء عما يشوبه من الحظوظ، وأن يفرد الله تبارك وتعالى في القصد بأنه المعطى لا غيره.

- ومنها أن يأتي في دعائه بما يشعر بعظمة الربوبية، وذلة العبودية. قال الشيخ زروق رضي الله عنه: "كل دعاء لا يشعر صاحبه فيه بعظمة الربوبية، وذل العبودية، فهو تلاعب. وبه أجيب

---

1 – هود: **76**
2 – هود: **80**
3 – الشعراء: **82**
4 – القصص: **24**
5 – البينة: **5**

عن عذم انتفاع كثير من الناس بالأدعية والأذكار الصحيحة الوعد بالإجابة، المجربة النفع عند أهل الصدق والإخلاص".

– ومنها الاكتفاءُ بعلم الله تعالى مع حسن الظن به والتفويض إليه في الإجابة والعطاء. وقد نقل الشيخ زروق رضي الله عنه عن بعضهم أنه قال: "من لم يكن في دعائه تاركا لاختياره، راضيا باختيار الحق تعالى، فهو مُسْتَدْرَجٌ، وهو ممن قيل له: اقضوا حاجته، فإني أكره أن أسمع صوته". فإن كان مع اختيار الحق سبحانه وتعالى لا مع اختياره لنفسه كان مجابا وإن لم يعط، والأعمال بخواتمها" اهـ.

وذكر في [جواهر المعاني] عن شيخنا رضي الله عنه أنه كان إذا دعا لنفسه أو لأحد بشيء مما كان مجهول العاقبة أو فيه حظ كان دعاؤه طلبه الخِيَرة من الله تعالى. وكان يقول المرة بعد المرة: "لا أدعو إلا بلساني، وقلبي مستسلم لله تعالى، وأقول: لا أريد شيئا، ولا أختار شيئا، تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد".

وتارة إذا طلبه أحد في الدعاء يمتنع منه أدبا مع الحق سبحانه واكتفاء بعمله واختياره لعبيده. وهذا كله فيما هو مشوب بالحظوظ.

وأما الدعاء على وجه العبودية فقد كان لا يزال لَهِجًا به، رطبًا به قلبه ولسانه، لأنه مأمور به شرعا.

وكان أكثر دعائه لمن سأله في الدعاء: "الله يُقْبِلُ عليك بمحض فضله ورضاه" اهـ. وفي هذا الدعاء من التحقق بوصف العبودية، والاستشعار لعظمة الربوبية، مع ما فيه من كمال النصح وحسن التربية، مالا يخفى، لاشتماله على جميع المطالب الدنيوية والأخروية، مع الاعتماد في جميعها على ما يبرز من الحضرة الفضلية.

وراجع آداب شيخنا رضي الله عنه في [جواهر المعاني]، وتأمل ما اشتملت عليه رسائله ومخاطباته من أدعيته لمن يخاطبه، ترى مما خصه الله تعالى به من محاسن الأدب، ما يشهد العقل والنقل بأنه لا يتأتى مثله إلا للخاصة العليا من أهل الرتب، رضي الله عنه وأرضاه، ومتعنا والأحبة في الدارين برضاه آمين.

واعلم أنه قد تحصل مما ذكره في [جواهر المعاني] من عمل سيدنا رضي الله عنه في الدعاء على اختلاف الأحوال فيه، أن الدعاء ينقسم إلى ثلاثة أقسام، ولكل قسم منها أدب يخصه:

– **القسم الأول**: الدعاء بما كان مجهول العاقبة، والمراد به ما لم تتبين مصلحته للعبد. وقد أفاد عمل سيدنا رضي الله عنه أن الأدب فيه هو أن يكون بطلب الخِيَرَة من الله تعالى، وهو واضح، والتحقق فيه بوصف العبودية بَيِّنْ.

– **القسم الثاني**: الدعاء بما كان مشوبا بحظ النفس، وهو طلب الحوائج من الله تعالى أعني الحوائج التي تبين للعبد أن له فيها مصلحة. وقد أفاد عمل سيدنا رضي الله عنه أن يطلب ذلك الشيء على التعيين مع التفويض والاستسلام، وترك مراد العبد إلى مراد سيده، واختياره إلى

اختياره سبحانه وحكم مشيئته، مع رؤية التأثير من الله تعالى لا من نفس الداعي، وهذا هو دعاء أهل اليقين.

قال الشيخ المحدث العارف بالله سيدي محمد بن علي الترمذي ﷺ في [نوادر الأصول]: "وأما أهل اليقين فإنهم يدعون ويلحون، وهم في ذلك ساكنون مطمئنون، منتظرون مشيئة الله، فإذا أجاب قبلوا، وإن تأخر صبروا، وإن منع رَضُوا وأحسنوا الظن، كما قيل: منع الله إياك، عطاء منه لك، وذلك أنه لم يمنعك من بخل ولا عَدْم" اهـ نقله في [شرح عدة الحصن الحصين].

وبهذا الأدب يصير الداعي متعبدا لله تعالى في عين طلبه لحاجته، فلا يؤثر في عبادته إذ ذاك حظ نفسه.

ومما يزيد هذا القسم بيانا وإيضاحا ما ذكره الشيخ أبو عبد الله بن عباد الرّندي في رسائله: ونصه: "إن الوجه في وقوع الدعاء، يعني طلب الحوائج من الله تعالى، على وجه العبودية، أن تكونٍ في حال دعائك طالبا من الله تعالى شيئا رأيت أن لك فيه مصلحة من غير أن تدعيَ استغناءً عن ذلك ولا سخاوة نفس به، ومن غير أن ترى دعائك سببا موجبا لحصول ذلك الشيء المطلوب دون الحكم الأزلي. وهذا لا ينافي كونك راضيا، مفوضا، متوكلا. كما لا ينافي ذلك التسبب والتكسب إذا كان بحيث لا يتغير قلبك ولا يضطرب عند عدم إفضاء سببك إلى مطلبك". ثم قال: "ولا يضرك ما يَفْجَؤُك أولا بمقتضى الطبع من بغضك لعدم حصول مطلبك، إذ ذاك لا يثبت ولا يلبث أن ينهزم ويزول بما يُكَرُّ عليه من وجود إيمانك ويقينك ومعرفتك، ويكون بمنزلة الطائف الذي ينهزم بالتذكر". اهـ نقله في الشرح المذكور بمعناه عن شيخ شيوخه العارف بالله هـ.

قلت: وهو حسن في بابه، مفيد جدا في إيقاع السؤال والطلب على الوجه الأكمل المرضي شريعة وطريقة وحقيقة حيث اشتمل على امتثال الأمر بالدعاء، وعلى ترك دعوى النفس الاستغناء عن الشيء المطلوب، وعلى رؤية التأثير للقدرة الإلهية والحكم الأزلي مع الرضى التام، والله تعالى أعلم. وإلى هذا أشار ما ذكره في [الحلية] عن محمد الباقر ﷺ أنه قال: "ندعوا الله تعالى بما نحب، فإذا وقع ما نكره أحببنا ما أحب" اهـ.

القسم الثالث: الدعاء على وجه العبودية المحضة تعبد الله تعالى، وتقربا إليه سبحانه وتعالى، من غير أن يشوب ذلك حظ. وهو التوجه إلى الله تعالى بالدعوات المشتملة على أوصاف العبودية من إظهار فاقة وافتقار، أو عجز واضطرار، على وجه التضرع والخضوع إلى الله تعالى، وعلى طلب التوبة والمغفرة، والقبول والرحمة منه سبحانه وتعال.

وعلى هذا القسم كان عمل من أدركناه من أصحاب الشيخ ﷺ في جميع الأحزاب والأدعية، وعليه كانوا يحضون، وفيه كانوا يرغبون. ورأينا الفضلاء المعتبرين منهم يكرهون أن يذكر المريد شيئا من الأدعية والأحزاب المتداولة في الطريق، كالسيفي، وحزب البحر،

وغيرهما بينة شيء من الخواص، ويصرحون بأن طريقنا أن نذكر ذلك تعبدا لله تعالى، وتقربا إليه وطلبا لمرضاته لا غيره.

وفي هذا القدر مما رمنا الإشارة إليه في هذا المطلب كفاية، والله ولي التوفيق والهداية.

المطلب الرابع

فِي بَعْضِ مَا يَخْتَصُّ بِالْمُرِيدِ مِنْ آدَابِ الصُّحْبَةِ وَالأُخُوَّةِ وَبَيَانُ مَا يَلْزَمُهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الوَفَاءِ وَكَمَالِ الفُتُوَّةِ

لا خفاء أن حقوق الصحبة والأخوة وآدابها على ما سيتبين قريبا إن شاء الله تعالى من أعظم الحقوق وآكد الآداب، إذ هي العصمة في مدارج السير والسلوك إلى حضرة رب الأرباب، وخصوصا في طريقتنا هذه الأحمدية التجانية، لقول سيدنا رضي الله عنه: "من ابتلي بتضييع حقوق الإخوان ابتلاه الله تعالى بتضييع الحقوق الإلهية".

وقد سمعت بعض أصحابه ﷺ يقول: "سمعت سيدنا ومولانا الشيخ ﷺ يقول: إني لكثيرا ما أهم بوضع مؤلف في آداب الطريق". تنبيها منه ﷺ على أن الأدب من أهم المهمات وآكدها في الطريق، وأن من تمسك به فيها فقد تمسك بالسبب الأقوى والحبل الوثيق. فلهذا جعلت هذا المطلب تابعا للمطالب قبله، وآثرت أن يكون كالتحصيل لمسائلها والتتمة والتكملة. فأقول والله المستعان، وعليه التكلان، لا إله غيره، ولا خير إلا خيره.

اعلم أن درجة الصحبة والأخوة عند الله تعالى درجة شريفة، ومرتبتها من الطريق مرتبة سامية منيفة، قد اختراها ورغب فيها وآثرها جمع من السلف، وتابعهم على ذلك الجم الغفير من جماهير الخلف.

ومما استندوا له فيما ذهبوا إليه من اختيارها، واستأنسوا به لما اعتمدوه من إيثارها، ما رأوا من أن الله تعال مَنَّ على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانا، فقال سبحانه وتعالى ﴿**فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾[1]، وقال سبحانه وتعالى ﴿**هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ**﴾[2] الآية. فقد دلت هذه الإشارة الكريمة، على أن الصحبة والأخوة منة عظيمة، ونعمة جسيمة، أمتن الله تعالى بها على من شاء من عباده المؤمنين المتحابين في جلاله، المتواخِّين في طلب مرضاته والوصول إلى حضرة كماله، وفي ذلك كما لا يخفى غاية الحث عليها، والترغيب فيها والندب إليها.

وقد دلت السنة المطهرة على ذلك أيضا. ففي [الدر المنثور]: أخرج ابن مردويه عن سعد بن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ :(**إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَّامَةِ، انْقَطَعَتْ الأَرْحَامُ، وَقَلَّتِ**

---

1 – آل عمران: **103**

2 – الأنفال: **62-63**

الأَسْبَابُ، وَذَهَبَتِ الأُخُوَّةُ إلاَ الأُخُوَّةِ فِي اللهِ تَعَالَى)، وذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ**﴾[1]" الآية ا هـــ.

وفي وصية سيدنا عمر الفاروق المُثْنَى عليه بأن (**الحق ينطق على لسان عمر**)، والمأمور بالإقتداء به في قوله ﷺ (**اقْتَدَوُا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ**) رضي الله عنهما: "عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء، وعدة في البلاء"اهـــ .

وذكر في [العوارف] عن سيدنا عمر أيضا رضي الله عنه أنه قال: "لو أن رجلا صام النهار، وقام الليل، وتصدق، وجاهد، ولم يحبْ في الله، ولم يُبْغضْ في الله، ما نفعه ذلك" ا هـــ. ومن لوازم الحب في الله تعالى المؤاخاة فيه، ولذلك يطلق أحدهما على الآخر.

وروى في[العوارف] أيضا بسنده إلى الأستاذ أبي القاسم القشيري أنه قال: "سمعت أبا عبد الرحمن السُّلَمِي يقول: سمعت عبد الله بنَ المعلّم يقول: سمعت أبا بكر الطِّمَسْتَاني يقول: اصحبوا مع الله، فإن لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركة صحبته إلى صحبة الله".

وروي فيها أيضا بسنده إلى الشيخ أبي جعفر الحداد رضي الله عنه أنه سمع الشيخ علي بن سهل يقول: الأنس بالله أن يُستَوْحَشَ من الخلق إلا من أهل ولاية الله، فإن الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله.

وذكر فيها أيضا: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام قال: "يا داود، مالي أراك منتبذا وحدانيا". قال: "إلهي قليْت الخلق من أجلك". فأوحى الله إليه: "يا داود كن يقظانا، وارتد لنفسك إخوانا، وكل خِدْنٍ لا يوافقك على مسرتي فلا تصحبه فإنه لك عدو يُقَسِّي قلبَك ويباعدك منى". اهـــ

ولهذا كانت الصحبة والصداقة عند الأحرار يراعى لها من الحقوق ما يراعى لأخوة النسب على ما قيل: "الصداقة لُحْمَة كلحْمة النسب" بل الحق أنها، أعني الصداقة والأخوة في الله تعالى آكد حقا من أخوة النسب. قيل لبعضهم "أيهما أحب إليك أخوك أو صديقك" قال: "إنما أحب أخي إذا كان صديقي".

قال الشيخ زروق رضي الله عنه في [شرحه للوَغْلِيسية] ما نصه: "قال العلماء: القرابة قرابتان: قرابة طينية، وقرابة دينية وهي أولى من القرابة الطينية" اهـــ.

وذكر الشيخ محي الدين رضي الله عنه في [الفتوحات المكية]: "أن شخصا دخل على شيخه ففاوضه في معنى قولهم: الأَقْربونَ أَولَى بِالَمعروفِ قال : فقال الشيخ من غير توقف: إلى الله يا

---

1 – الزخرف: **67**

فلان اهـــ . يعني الأقربون إلى الله أولى بالمعروف من الأقربين من جهة النسب. وقال الشيخ زروق ﷺ: "الصداقة من قواعد الدين والدنيا" اهـــ.

ومما يشير إلى شرف منْزلتها، وكمال فضيلتها، زيادة على ما تضمنته إشارات هؤلاء الأعلام، ما اشتملت عليه من الفوائد العظام، والكرامات والبركات والخيرات الجسام.

قال في [الجيش الكبير] ما نصه": ثم الفوائد المطلوبة من الصحبة دينية ودنيوية. أما الدنيوية فكالانتفاع بالمال والجاه، وليس ذلك من غرضنا. وأما الدينية فتجتمع فيها أغراض مختلفة إذ منها الاستفادة بالعلم والعمل، ومنها الاستفادة في الجاه تحصنا من إيذاء من يشوش القلب، ويصد عن العبادة، ومنها التبرك بالدعاء، ومنها انتظار الشفاعة، إلى غير ذلك" اهـــ.

وفي [العوارف]: إنه يقع بطريق الصحبة التعاضد والتعاون، وتتقوى جنود القلب، وتستروح الأرواح بالتشام، وتتفق في التوجه إلى الرفيق الأعلى، ويصير مثالها في الشاهد كالأصوات إذا اجتمعت خرقت الأجرام، وإذا انفردت قَصُرت عن بلوغ المرام. وقد ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ (**الْمُؤْمِنُ كَثِيرٌ بأَخِيهِ**)

قلت وفي الخبر عنه ﷺ (**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**).

وفي [العوارف] أيضا: "إن من فوائد الصحبة والأخوة أنها تفتح مسام الباطن، ويكتسب الإنسان بها علم الحوادث والعوارض" اهـــ.

قلت : ويريد بهذا، والله أعلم، أنه يتقوى نور الفراسة الإيمانية باستمداد البعض من البعض، وسريان سر البعض إلى البعض، إذ من فوائدها ما يسري من الفاضل إلى المفضول، من السر الباطني الذي هو منتهى القصد من الصحبة وغاية السول. وقد قيل: "من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها".

وأحط الناس مرتبة في مقام الصحبة للأخيار المحب لهم فقط، وكفاه إن لم يكن منهم فهو معهم، لحديث (**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**). وفي مختصر الإحياء بعد كلام في الصحبة ما نصه: " فاصحب الأخيار إن لم تكن منهم فأنت معهم" اهـــ يريد: اصحبهم بالمحبة والتسليم لتكون معهم وإن لم تكن منهم، فإن (**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**).

وبالجملة ففي مخالطة الأخيار مع التسليم والمحبة خير كثير، بل المخالطة أصل كبير في الانتفاع. ولهذا قالوا: "إنها – أعني المخالطة — تغني عن غيرها ولا يغني غيرها عنها". وقد ذكر عن العارف بالله تعالى سيدي عبد الرحمن بن مَحمد الفاسي ﷺ أنه قال لرجل من أصحاب بعض الأولياء من أهل عصره وقد رآه لا يخالط الفقراء: "ماذا يأمركم به شيخكم" فقال:

"بِالسُّبَيْحَةِ وَاللُّوَيْحَةِ"، فقال له ﷺ: "ليست هذه الطريق ِالسُّبَيْحَةِ ولا اللُّوَيْحَةِ وإنما هي بالمخالطة، خالط الجذمى تجذم" اهـــ.

وقد ذكروا أن لقاء الإخوان لقَاح. ولا شك أن البواطن تُلْتَقَحُ بالملاقاة، وأن مجرد النظر لأهل الصلاح يؤثر صلاحا، بل كل نظر في الغالب يؤثر أخلاقا مناسبة لِخُلُق المنظور إليه. كما أن النظر إلى المسرور يورث سرورا، وإلى المحزون يكسب حزنا، والجَمَلَ الشَّرود يصير ذلولا بمقارنة الذلول، والماءَ والهواءَ يفسدان لمقارنة الجِيَفَ، والزروعَ تُنْقَى عن العروق المجاورة لها لموضع الإفساد بالمقاربة. فالمقاربة لها تأثير في الحيوان والنبات والجماد والماء والهواء، وإذا كانت كذلك فهي في النفوس الشريفة البشرية أكثر تأثيرا.

ومن فوائد الصحبة أيضا: تحمل البعض من المتصاحبين عن البعض في دار الدنيا ما يترل بهم من المصائب والأحزان، وتلقيهم للوارد عليهم منهم في البرزخ بحسن البشر ومزيد الكرامة والبر والإحسان، وأخذ البعض منهم بيد البعض يوم القيامة، وشفاعته له في نيل المغفرة والدرجات العلى في دار الرضوان.

وقد ذكر في [العوارف]: "أن أحد الأخوين في الله تعالى يقال له : ادخل الجنة. فيسأل عن منْزلة أخيه، فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل مترلته، فيقال له: لم يكن يعمل مثل عملك، فيقول: إني كنت أعمل لي وله. فيعطي جميع ما يسأله لأخيه، ويرفع أخوه إلى درجته" اهـــ.

فهذا بعض ما يشير إلى جلالة قدر صحبة الأخيار، وإِنَافة مكانة مواخاة الأبرار، على طريق الإيجاز والاختصار، وفيه كفاية لمريد التذكر والاستبصار.

ولهذا الذي ذكرناه من سمو درجتها، وشرف مكانتها، خصت بالحقوق العظيمة الأكيدة، وحُفَّتْ بمحاسن الآداب والأخلاق الحميدة.

فمن آدابها الخاصة عند إرادة الدخول فيها أن يُسْلِمَ المدخولُ معه على الصحبة والأخوة نفسه، وصاحبُه الداخلُ معه عليها إلى الله تعالى، بالاجتهاد في المسألة، والدعاء والتضرع، لأنه يفتح على نفسه بصحبته إما بابا من أبواب الجنة، وإما بابا من أبواب النار. فإن فُتِح عليهما في مصاحبتهما بخير وداما عليه إلى أن ماتا عليه فقد فتح على نفسه بتلك الصحبة بابا من أبواب الجنة. قال مولانا سبحانه وتعالى ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[1].

---

1 – الزخرف: **67**

وإلا بأن نشأ عن صحبتهما شر، والعياذ بالله تعالى، قطعهما عن الله تعالى، فقد فتح على نفسه بصحبته بابا من أبواب النار. قال تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾[1] الآية. وهي، وإن كانت نزلت في سبب خاص وقصة مشهورة، فإن لله تعالى تنبيها في ذلك لعباده على الحذر ممن تَقْطع صحبته عن الله تعالى. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: "وهل يُفْسدُ الناسَ إلا الناسُ. فالفساد بالصحبة مُتَوَقَّع، كما أن الصلاح متوقع. وما هذا سبيله كيف لَا يَحذر في أوله، ويُحكم الأمر فيه بكثرة اللجإ إلى الله تعالى، وصدق الافتقار وسؤال البركة فيه، وتقديم صلاة الاستخارة، إلى غير ذلك. أنظر العوارف. قلت : وما رأيت ولا سمعت أكثر قياما بهذا، ولا أشد اعتناء به من أصحاب سيدنا ﷺ الذين صحبوه قيد حياته وحصل لهم التأهل لتلقين ورده. فإنهم كانوا إذا أتاهم من يريد الدخول في الصحبة والأخوة يظهر عليهم من الاهتمام بشأنه، والاجتهاد في الدعاء له ولهم معه بالثبات في الأمر، مع إسناد الأمر منهم في ذلك إلى همة الشيخ ﷺ بإظهارهم أن يدهم فيه إنما هي يد نيابة لا غير، وأنهم ليس لهم فضل على من يلقنونه، ولاحظ لهم فيما يعاملونه به من بذل النصيحة وكمال الإرشاد، إلا ما يرجونه من فضل الله تعالى بسبب التبليغ ظاهرا لا غير.

ورأيت منهم من لا يلقن أحدا إلا بعد صلاة الاستخارة النبوية وصدق اللجإ إلى الله تعالى على أكمل ما يمكن. ومنهم من كان يزيد مع الاستخارة قراءة ما تيسر من صالة الفاتح لما أغلق ويهدي ثوابها إلى الشيخ ﷺ، ويستأذنه في تلقين ورده لذلك الإنسان الذي طلبه منه بقلبه، أو بقلبه ولسانه بأن يقول: "هذا فلان طلب مني أن ألقنه، وها أنا ألقنه عن إذنك وببركة همتك" ونحو ذلك.

وقد أخبرني الناظم قدس الله سره أنه لما عزم على الدخول في هذه الطريقة الشريفة أتى هو ورفيق له إلى العلامة الكبير، المقدم البركة الشهير، أبي عبد الله سيدي مُحَمَّدْ المدعو مُحَمْدَ ابن سيدي عبد الله العلوي، المدعوِّ الخليفة لقيامه بعد الشيخ الجليل سيدي محمد الحافظ العلوي بأعباء تلقين الأوراد، والهداية والإرشاد. فلما طلبا منه ﷺ أن يلقنهما الورد ظهر عليه ما ظهر من أثر الاهتبال لذلك، و لم يَقِرَّ له قرار حتى سار بهما إلى ضريح سيدي محمد الحافظ ﷺ، وكان على مسافة من محله. فلما أدى الواجب من التسليم عليه وزيارته، أمرهما أن يدنوا من القبر المبارك، ثم خاطبه وهما يسمعان بأن قال له بلسان يعلم منه غاية الخضوع والانكسار، والعجز والافتقار: "هذا فلان بن فلان وفلان بن فلان جاءا يطلبان مني أن ألقنهما ورد مولانا الشيخ ﷺ، وها أنا ألقنهما عن إذنك وإذن الشيخ ﷺ". ثم لقنهما. وأكثر الدعاء بذلك المحل المبارك له ولهما.

---

1 – الفرقان: 27

وقد اتفق للناظم أيضا رحمه الله مثل هذا بفاس. فلقنه بعض مشاهير أصحاب سيدنا ﷛عند قبره الأنور ﷛ على نحو ما تقدم. وهذا من عناية الله تبارك وتعالى به. وقد ظهر عليه أثر ذلك فصار أمره إلى ما صار إليه من التبريز في التحقيق، وبلوغ درجة الكمال في الصدق والتصديق.

ومنهم من كنت أراه إذا أراد أن يلقن أحدا يأمره أن يحضر الوظيفة مع الفقراء بالزاوية في وقتها المعلوم، فإذا ختمت الوظيفة يظهر على وجهه من أثر الحضور ما يعلم منه أنه يستأذن في ذلك الحضرة الشريفة. ثم بعد الفراغ من القراءة والدعاء، يتوسم وجوه الحاضرين كالمستمد من بركاتهم، ويقول لهم : هذا "فلان قد أراد الدخول في عهد الشيخ ﷛". ثم يلقنه، ويجتهد هو والحاضرون في الدعاء له.

وإنما أطلت النفس في هذا الأدب تنبيها ونصيحة للإخوان، وإرشادا إلى العمل على هذا الأدب والقيام به بقدر الإمكان. فربما يرى بعض المتصدين للتلقين، إذا كان غِرّاً بمدارك الأمور، ما في كتاب [جواهر المعاني] وغيره من أن هذا الورد الشريف يلقن لكل من طلبه من المسلمين على أي حالة كان : كبيرا أو صغيرا، ذكرا أو أنثى، طائعا أو عاصيا، فيظهر له أن المراد بهذا الكلام الأمرُ بالمسارعة إلى التلقين من غير تثبت ولا تأنّ ولا قيام بآداب المقام. وليس الأمر كذلك، بل لابد من التثبت والتأني. فلا يلقِّن الطالبَ لذلك إلا بعد عرضه الشروط المشروطة في ذلك عليه وإيناسه منه قبولها القبول التام. كيف وهو يرى بإزاء هذا الكلام من [جواهر المعاني] قولَ سيدنا ﷛: "ومن أخذ هذا الورد وتركه تركا كليا أو متهاونا به حلت به العقوبة، ويأتيه الهلاك في الدنيا والآخرة" إلى آخر كلامه ﷛ المؤكد بالوصية التي هي من لفظ سيد الوجود ﷺ.

فالعمل على هذا الأدب من آكد الأمور في هذه الطريقة وأهمها، لما يفضي إليه ترك العمل عليه من التسبب في العقوبة والهلاك والعياذ بالله تعالى. والله تعالى يلهمنا الرشد والصواب، ويختار لنا من الحركات والسكنات في جميع التقلبات ما تحمد به العاقبة في الحياة وعند المآب، إنه الكريم الجواد الفتاح الوهاب.

ومن آداب الصحبة والأخوة عند إرادة الدخول فيها أيضا: أن يسأل كل منهما صاحبه عن اسمه واسم أبيه وعن منزله، لما روى أن النبي ﷺ رآى ابن عمر ﷛ يلتفت يمينا وشمالا فسأله فقال يا رسول الله إني أحببت رجلا في الله تعالى فأنا أطلبه ولا أراه فقال له ﷺ: **(يَا عَبْدَ اللهِ إِذَا أَحْبَبْتَ فِي اللهِ أَحَداً فَاسْأَلْهُ عَنْ إِسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَعَنْ مَنْزِلِهِ، فَإِنْ كَانَ مَرِيضاً عُدْتَهُ، وَإِنْ كَانَ مَشْغُولاً أَعَنْتَهُ)** اهـــ.

وقد رأيت بعض الأصحاب يعمل على هذا الأدب حتى ربما قيد أسماءهم إن لم يكونوا من أهل البلد الذي هو فيه. ولا شك أن ذلك من الاعتناء بحقوق الأخوة في الله تعالى، وقد علم ما في ذلك من الخير. والله الموفق.

ومن آداب الأخوة التودد والتألف بكل ما يُقْدَرُ عليه ويستطاع فعله مع الأخ من الأفعال التي تُستَجلب بها مودته، وتصفوا بها أخوته. وهذا الأدب هو الأصل الجامع لسائر الآداب كلها، وإليه مرجع الأخلاق الحسنة بأسرها، ولهذا كان رأس العقل كما في الحديث عن النبي ﷺ : (**رَأْسُ العَقْلِ بَعْدَ الإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ**). ويكون التودد بأمور هي معظم آداب الأخوة في الله تعالى:

منها : أن يحفظ الأخ قلبه بقدر استطاعته من أن يضمر فيه سوءا لأخيه إذا رأى منه ما يكره. وحفظ القلب من ذلك يكون بتنبيهه إياه على ما كرهه منه، لكن بلطافة وحسن سياسة بحيث يفارق ما كرهه منه وهو لا يشعر أنه مقصود من أخيه بذلك التنبيه. وهذا أولى متى أمكن لجريه على سَنَن الأخلاق المحمدية، ولبعده عن مظان الضغينة وغيرها مما يؤدي إلى فساد الطوية.

فإن لم يكن هذا، وأدى الحال إلى التنبيه بالكلام، فليكن في الخلا لا في الملا، وبتقديم تمهيد يأنس به المنصوح بحيث يقع في نفسه ذم ما أراد أن يأمره الناصح بالتخلية عنه قبل أن يأمره بذلك، وبإخلاص القصد في ذلك لله تعالى، والعزم على أن لا يذكر ذلك لأحد كائنا من كان.

ومن آداب المنصوح هنا: أن يروض نفسه لتلقى نصيحة أخيه بالقبول، ويعلم أنه إنما فعل معه ذلك لكمال مودته، وصفاء إخائه، فيثني عليه، ويجازيه بدعاء الخير على ما أسداه إليه. وقد روى عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه كان يقول: "رحم الله امرأ أهدى إليَّ عيوبي". ومعلوم أن الصادق يحب من يصدقه، والكاذب بخلافه، فلا يحب الناصح كما قال تعالى : ﴿وَلَكِن لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[1].

وليحذر المنصوح من ثورة النفس عند سماعه النصيحة، فيحتقر الناصح ويقول له: "مثلك ينصحني"، أو ما في معنى ذلك، فإن ذلك من الجفاء، ومن أعظم أسباب الانتكاس والسقوط والعياذ بالله تعالى. قال الشيخ محيي الدين: "ومن قال لناصحه على سبيل شفوف نفسه عليه : مثلك ينصحني، أو لمثلي يقال هذا فاعلم أنه سقط من عين الله تعالى، وقد حجبه الله عز وجل عن عبوديته وعن الإيمان، فإن الله تعالى يقول : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. اهـ

---

1 – الأعراف: **79**
2 – الذاريات: **55**

وبالجملة فالذي عليه المدار في هذا الأدب هو حفظ القلب من إضمار السوء للأخ. فإن أمكن تنبيهه على الكيفية السابقة، أو التسبب في إزالة الوصف المكروه منه بشيء فذاك، وإن لم يمكن ذلك فليجتهد في الدعاء له بظهر الغيب من غير تقصير. وهذا أدنى الدرجات فيما يطلب من حقوق الأخوة في هذا الباب.

وليجاهد نفسه، بعد هذا، في التخلي عن إضمار السوء لأخيه ما أمكنه. وذلك لأنهم نصوا على أن أحد الأخوين إذا أضمر لأخيه سوءا، وأحرى إذا أضمر كل منهما للآخر ذلك، والعياذ بالله تعالى، فقد ارتفعت بينهما الأخوة من أصلها. إذ الأخوة مواجهة، كما أفاده من طريق الإشارة قوله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[1]. ومتى وقع إضمار السوء من أحدهما، أو منهما، ارتفعت المواجهة، وحصلت المدابرة. وبالمدابرة يرتفع وصف الأخوة من بينهما والعياذ بالله تعالى.

ولهذا أمر سيدنا رضي الله عنه في وصيته الشهيرة لفقراء فاس : أن تصحب المناصحة بالرفق واللين، من غير ضغينة ولا حقد.

قال في [الجيش الكبير] على قول سيدنا رضي الله عنه في هذه الوصية "من غير ضغينة ولا حقد": "هو تأكيد للأمر بالرفق والملاطفة إذ عنهما ينشأ الحب، وعن العنف البِغْضَةُ والحِقدُ". قال: "ويحتمل أن يريد بذلك أن لا تكون السياسة مصحوبة بضغينة وحقد من الْمَناصح، لأن (اَلْمُؤْمِنُ لَيْسَ بِحَقُودٍ) كما في الحديث. ومعنى الحقد، كما في الإحياء: أن يلزم قلبه استثقاله، والبغضة له، والنِّفار عنه، وأن يدوم ذلك ويبقى ويثير الحسد، والشماتة، والهجران، والاستصغار، والوقوع فيما لا يحل من الكلام، ومنع الحق، وغير ذلك، وكل ذلك حرام. وأقل درجاته أن يحترز من هذا كله ولكن يستثقلهم بالباطن، ولا ينتهي باطنه عن بغضه حتى يمتنع من البشاشة له، والرفق والعناية به، والقيام بحاجته، ومجالسته، والمعاونة على المنفعة له، ويترك الدعاء له والثناء عليه. وهذا كله يَنْقُصُ من درجات الدين وإن كان لا يَعْرِضُ للعقاب" اهـ من [الجيش]، وراجعه إن شئت.

واختلف إذا ظهر من أحد من المتواخِيْن ما يوجب المقاطعة هل يهجر أم لا. وكان أبو ذر رضي الله عنه يقول: "إذا انقلب الأخ عما كان عليه أبغضْته من حيث أحببته". وذهب غيره إلى أن الأخ لا يبغض بعد الصحبة ولكن يبغض فعله كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2]، ولم يقل جل وعلا : إني بريء منكم. وكان زين العابدين رضي الله عنه يقول: "لا تُبغِض ذات أخيك وابْغَض فعله، فإن تاب منه فهو أخوك". وذُكر أن شابا كان يلازم مجلس أَبي الدرداء رضي الله عنه، وكان أبو الدرداء يميزه على غيره، فابتُليَ الشابُ بكبيرة

---

1 – الحجر: **47**
2 – الشعراء: **216**

من الكبائر، وانتهى إلى أبي الدرداء ما كان منه. فقيل له : "لو أبعدته وهجرته" فقال : "سبحان الله لا يترك الصاحب لشيء كان منه".

والذي عليه المحققون، ويُمكن أن يكون كالجمع بين القولين السابقين، التفصيل فيما يظهر من موجب البغض:

– فإن كان الموجب فسادَ عقيدة، وسوءَ ظن، وفسخَ عهد عمدا، بانقلاب عن الحالة الأولى جهارا بإبداء العداوة، والتجاهر بالمخالفة، والعياذ بالله تعالى، فإن صاحب هذا الحال يجب هجره وإبعاده موافقة للحق فيه، لا احتقارا له. وعليه يحمل قول أبي ذر ﷺ: "أبغضته من حيث أحببته". فلا خير في موالاته إلا إذا تاب ورجع نادما مستغفرا، مستقيلا معترفا منكسرا.

– وإن كان الموجب ارتكاب ذنب لا يرضاه ربه، والتلبس بشيء مما يَشينه عند الناس ملابسته وقربه، أو عثرةً حدثت، أو هفوةً وقعت، وكان بحيث ترجى توبته، وتتوقع فَيْئَتَهُ، فهذا لا ينبغي أن يعامل بالبغض لذاته، ولكن يبغض فعله وما تلبس به من عوارض هفواته. ويلحظ مع ذلك بعين الوداد، ويُنْتَظَرُ له الفرج والعود إلى مواطن الصلح من مواطن الجفاء والبعاد. وهذا هو الذي يجب على أخيه أن يعامله بجميع ما تقدم ذكره، وأن يتحفظ غاية التحفظ من أن يتغير عليه باطنه وسره، وأحرى أن لا يَشْتِمَهُ مشافهة، أو يُعَيِّرَهُ بفعله مواجهة. وقد قال ﷺ لمن شتم الرجل الذي أتى بفاحشة : (**مَهْ لاَ تَكُونُوا أَعْوَاناً لِلشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ**) وقال إبراهيم النخعي: "لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب لذنبه، فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غداً". وخصوصا إذا كان هذا الأخ الذي صدرت منه هذه العثرة، أو دهمته هذه الفترة، ممن تقدم له ممارسة بالطريق، وإشراف على مدارج الأذواق والتحقيق. فإنه تجب معاملته بالإغضاء، ومزيد البرور والإرضاء. وفي الخبر (**اتَّقُوا زَلَّةَ العَالِمِ وَلاَ تَقْطَعُوهُ وَانْتَظِرُوا فَيْئَتَهُ**).

ومن الأدب هنا أن يكثر الأخ من الاستغفار لأخيه المبتلى بما ذكر بظهر الغيب، وأن يهتم له غاية الاهتمام، ويتوجه إلى الله تعالى بقدر الإمكان في كشف ما نزل به، وأن لا يقصر في نصحه، لكن على الحد الذي تقدم وجهه.

ومما ذكروه من الحكايات في هذا الأدب: أن أخوين ابتُلِيَ أحدهما بهوى، فأظهر عليه أخاه فقال: "إني ابتليت بهوى فإن شئت أن لا تقعد على أخوتي ومحبتي لله تعالى فافعل" فقال له أخوه "ما كنت لأحل عقد إخائك لأجل خطيئتك". وعقد بينه وبين الله تعالى عقداً أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافى أخوه من هواه. فطوى أربعين يوما في كلها يسأله عن هواه فيقول : "لا زال". فبعد الأربعين أخبره أن الهوى قد زال، فحمد الله تعالى وأكل وشرب اهـــ.

وروي عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان آخى رجلا في الله تعالى، فخرج ذلك الرجل إلى الشام، فسأل عنه سيدنا عمر ﷺ بعض من قدم من الشام فقال: "ما فعل أخي؟" فقال: "ذلك أخو الشيطان". قال: "مه" قال: "إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر". فقال ﷺلذلك الرجل: "إذا أردت الخروج، يعني إلى الشام، فآذني". فكتب إليه سيدنا عمر ﷺ : "﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾[1]" ثم عاتبه تحت ذلك وعذله. فلما قرأ الكتاب بكى وقال: "صدق الله، ونصح عمر"، فتاب ورجع.

ومن الأدب في هذا الباب أيضا إذا وقع ونزل وحصلت فرقة ومباينة أن لا يذكره إلا بخير. لما روي عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم أنه كانت له زوجة لا ترضيه أخلاقُها، فكان إذا استُخْبِرَ عن حالها يقول: "لا ينبغي للرجل أن يقول في أهله إلا خيرا". ثم فارقها وطلقها. فاستخبر عن حالها فقال: "امرأة بعدت مني وليست مني بشيء كيف أذكرها" انتهى

قال السهروردي رحمه الله تعالى بعد حكايته لهذا: "وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى الذي (أَظْهَرَ اَلْجَمِيلَ وَسَتَرَ القَبِيحَ" اهـــ.

– ومنها أي الأمور التي ينشأ عنها التودد والتألُّف، وهي كما أسلفناه معظم الآداب : الموافقة وترك المخالفة مع الإخوان والأصحاب. ويكون ذلك بترك المِراء والجدال. ولا يُنْتَزَعُ المِراء إلا من نفوس زكية، قد انتزع منها الغل وغيره من الأخلاق الردية، واتصف بالأخلاق الحسنة المرضية. إذ وجود الغل في النفوس كما قيل مراء، وإذا انتزع المراء من الباطن ذهب من الظاهر.

وأكثر ما ينشأ عنه الغل في الباطن المزاحمة على الحظوظ العاجلة بكثرة المناصرة فيها والمنافسة، خصوصا ممن كان بينهما مشاكلة ومماثلة ومجانسة. ومن استقصى في تذويب حظوظ النفس بنيران الذكر على سبيل التزكية، بالسلوك على أيدي الكمل من أهل التربية، تنحى الغل من باطنه بحيث لا تبقى فيه بقية، وتصير نفسه أخروية بعد أن كانت دنيوية، فلا ينافس بعد ذلك في شيء من الحظوظ العاجلة من جاه أو مال، لكمال تعلق قلبه بحضرة مولاه ذي الجلال. وكيف يبقى كما قيل: الغل في قلوب ائتلفت بالله، واتفقت على محبته، واجتمعت على مودته، وأَنِسَتْ بذكره، واستغرقت في شكره. فإن تلك قلوب تصفت من هواجس النفوس، وظلماتِ الطبائع، بل كَحلَت بنور التوفيق من فضل الملك الصانع. ولا محالة أن هذه القلوب هي قلوب أهل الله المجتمعين على الكلمة الواحدة مع التقيد بشروط الطريق، والانكباب على طلب الحق بكمال الصدق والتصديق.

---

1 – غافر: 1-3

قال أئمة الطريق رضي الله عنهم : والناس في هذا رجلان:

• رجل طالب من عند الله تعالى، ويدعو إلى ما عند الله نفسه وغيره. فما للمحق مع هذا منافسة ولا مِراء، ولا غل، لأنه معه في طريق واحدة، ووجهة واحدة. فهو أخوه ومعينه، (**وَالْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**).

•• ورجل مفتتن، والعياذ بالله تعالى، بشيء من محبة الجاه والمال والرياسة ونَظَر الخلق. فما للمحق مع هذا أيضا منافسة، لأنه زهد فيما رغب فيه، فهو في واد، وذاك في واد" اهــ.

ومن الأدب هنا أن ينظر إلى مثل هذا نظر شفقة ورحمة، فلا ينطوي له على غل، ولا يشتغل معه بمراء ولا مجادلة، لعلمه بظهور نفسه الأمارة في ذلك بما تقتضيه المجانسة الظاهرة والمشاكلة. وترك المراء خير كله على كل حال. وفي الحديث (**مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي وَسَطِهَا، وَمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي أَعْلاَهَا**).

وهذا الأدب داخل في عموم الأمر من سيدنا الشيخ ﷺ بالتجنب لكل ما يوجب ضغينة في قلوب الإخوان، فليحافظ عليه بقدر الإمكان، والله المستعان.

– ومن الأمور التي يكون بها التودد والتألف أيضا، إيثار الأخ أخاه في أمر دنياه، قيل : وكذا فيما يتعلق بأمر أخراه. والأصل الذي استند إليه أهل الطريق في هذا الباب قول الله تعالى في حق الأنصار رضي الله عنهم ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ**﴾[1] الآية.

وقد سئل الشيخ أبو الحسن البُوشَنْجي عن الفُتُوَة، فقال: "الفتوة عندي ما وصف الله تعالى به الأنصار في قوله ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾[2]. قال ابن عطاء : ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ**﴾ جودا وكرما (وإن كان بهم خصاصة) جوعٌ وفقر.

فأما الإيثار في أمر الدنيا فقد وردت في الترغيب فيه أخبار كثيرة، ويكفي ما روي من ذلك في سبب نزول هذه الآية الكريمة: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ**﴾[3] الآية. فعن ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك أن النبي ﷺ قال للأنصار، وقد حضرت غنيمة (**إِنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُمْ لِلْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَدِيَارِكُمْ وَتُشَارِكُونَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ، وَإِنْ شِئْتُمْ كَانَتْ لَكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَدِيَارُكُمْ وَلَمْ يُقْسَمْ لَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ**)، فقالت الأنصار رضي الله عنهم: "بل نَقْسِمُ لهم من ديارنا وأموالنا، ونؤثرهم بالغنيمة، ولا نشاركهم فيها"، فنزلت الآية.

وعن أبي هريرة ﷺ في ذلك أيضا حديث الرجل الذي استطعم النبي ﷺ، فبعث لأزواجه فلم يُلْفَ عندهن شيء، فقال عليه الصلاة والسلام : (**مَنْ يُضَيِّفُ هَذَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ**).

---

1 – الحشر 9
2 – الحشر 9
3 – الحشر: 9

فقام رجل من الأنصار وذهب به إلى أهله وقال لزوجه:"هذا ضيف رسول الله ﷺ فأكرميه ولا تدخري عنه شيئا". فقالت: "ما عندنا إلا قوتُ الصبية". فأمرها أن تعللهم حتى يناموا. فقدمت طعامهم للضيف، ثم قامت إلى السراج كأنها تريد إصلاحه فأطفأته. فجعل الضيف يأكل، وهي وزوجها يَمْضَغَانِ ألسنتهما، والضيف يظن أنهما يأكلان. فأكل حتى شبع، وباتا طاويين. فلما أصبحوا غدوا إلى رسول الله ﷺ ، فلما نظر إليهما تبسم وقال: (**لَقَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ فُلاَنٍ وَفُلاَنَةٍ هَذِهِ اللَّيْلَة**) ونزلت الآية".

وعن أنس رضي الله عنه في ذلك أيضا أنه أُهْدِيَ إلى بعض الصحابة رضي الله عنهم رأس غنم مشوي، وكان مجهودا، فوجه به إلى جار له، فتداوله سبعة أنفس ثم عاد إلى الأول، فنزلت الآية.

إلى غير ذلك مما روى من الأحاديث في هذا الباب.

وأما ما اتفق لكمل الأولياء من هذا المعنى فشيء كثير، وأعجب ما رأيناه في ذلك ما ذكروه عن النَّوْري مع جماعة من المشايخ منهم الجنيد لما سُعِيَ بهم، فتستر الجنيد بالفقه، وقُبض على الباقين، وأُمِرَ بضرب أعناقهم. فتقدم النوري، فقيل له: "إلى ماذا تبادر" فقال: "أوثر أصحابي بفضل حياة ساعة" اهـــ.

وأما الإيثار بأمور الآخرة: فمن ذلك ما ذكر عن بعضهم أنه لقي أخا له فلم يظهر البشر الكثير في وجهه، فأنكر أخوه ذلك منه، فقال: "يا أخي، سمعت أن رسول الله ﷺ قال (**إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ تَنْزِلُ عَلَيْهِمَا مِائَةُ رَحْمَةٍ، تِسْعُونَ لِأَكْثَرِهِمَا بِشْراً وَعَشْرٌ لِأَقَلِّهِمَا بِشْراً**) فأردت أن تكون أكثر مني بشرا ليكون لك الأكثر" اهـــ.

وانظر ما ذكروه من أن المريد لا ينبغي له أن يؤثر بِفَضْلَة الشيخ ونحوها مما يخصه به، كما قال الشيخ زروق رضي الله عنه: "ومتى أعطاكم مأكولا أو غيره فلا تؤثروا به الغير، ولا تشاركوا قريبا ولا بعيدا فيه. فقد يكون جمع لكم فيه سرا فيفوت من المدد بحسب الشِّرْكة فيه" اهـــ. هل هو مستثنى مما تقدم أولا. والظاهر، والله تعالى أعلم، أن المريدين المتواخين في الله تعالى، الصادقين في طريق الإرادة، موكولون في ذلك إلى ما تنتجه لهم أحوال محبتهم وصدقهم. فلا يعترض على من امتنع منهم من الإيثار، كما لا يعترض على من جنح إليه، إذ كل منهما على صواب بحكم ما أنتجه له حال صدقه ومحبته. فافهم، والله تعالى أعلم.

– ومن ذلك أيضا، وهو من آكدها، مواساة الأخ أخاه من ماله، وكذا من جاهه بالمقدور، ومواصلته بطريق المجاملة والمكارمة في الورود والصدور.

والأدب في هذا الخلق أن يكون هذا على أحسن وجوه الكمال حتى لا يحصل به شيء مما يتأذى به المُوَاسَى كالمنّ وما في معناه مما جبلت عليه أنفس اللئام من الناس. ومما هو في

معنى المن جعلها في مقابلة غرض من الأغراض، أو عوض من الأعواض، ولو الجزاء والشكر عليها من المواسى والثناء من غيره. لأن الحامل على الإيثار والمواساة طهارة النفس، وشرف غريزتها. وهذا الوصف في النفس لا يتكامل إلا في أهل طريق الله تعالى، وهو المعبر عنه بالسخاء. وفي مقابلته الشح. كما أن الجود في مقابلته البخل، والفرق أن الجود والبخل يتطرق إليهما الاكتساب بطريق العادة، بخلاف الشح والسخاء إذ كانا من غرائز النفوس البشرية، فكل سخي جواد ولا عكس. والجود يتطرق إليه الرياء لما فيه من التطلع إلى العوض بمقابلة مَّا وَلَوْ بالثناء، والسخاء لا يتطرق إليه الرياء لأنه يَنْبُع من النفوس الزكية والهمم المرتفعة عن الأعواض كيفما كانت. فكل من كانت غريزته أسخى، تكون مرتبته في الصفاء أعلى. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] فحكم سبحانه في هذه الآية بالفلاح للسخي. والفلاح أجمع اسم لسعادة الدارين.

وهذا الأدب والذي قبله مصرح به في الرسالة الأولى، وفي السادسة أيضا من رسائل الشيخ ﷺ، فراجع ذلك في كتاب [جواهر المعاني]. وعلى ذلك فيجب التنبه له، والعمل به بقدر الاستطاعة. والله المستعان.

- ومنها أيضا: أي من الأخلاق المنتجة للتودد والتألف: مدارة الإخوان، واحتمال الأذى منهم.

وقد بلغ من مدارة رسول الله ﷺ أن كان لا يذم طعاما ولا ينهر خادما. وعن سيدنا أنس ﷺ: "خدمت رسول الله ﷺ فما قال لي أف قط" الحديث.

وقد قالوا : "لا شيء يستدل به على قوة عقل المرء ووفور علمه وحلمه كحسن المدارة". وقالوا: "لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر"، ولهذا قيل: "باحتمال الأذى يظهر جوهر النفس". وبيان ذلك : أن النفس لا تزال تشمئز ممن يعكس مرادها، ويستفزها الغيظ والغضب، وبالمدارة والاحتمال قَطْعُ حَمِيَتِهَا، ورد طيشها، وكظم غيظها.

ويكفي في الحث على هذا الأدب والترغيب فيه قول الله عز وجل: ﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[2] الآية. وفي الحديث (**مَنْ كَظَم غَيْظًا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَفِّذَهُ دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الخَلاَئِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الحُورِ شَاءَ**).

وتشتبه المدارة بالمداهنة. والفرق بينهما: أن المدارة ما أردت به صلاح أخيك فداريته رجاء إصلاحه، واحتملت منه ما تكره. والمداهنة ما قصدت به شيئا من الهوى كطلب حظ

---

1 – الحشر: **9**
2 – آل عمران: **133**

وإقامة جاه. فالأولى من أخلاق الأخيار، والثانية من سمات الأشرار. وقيل في الفرق بين حقيقتيهما : أن المداراة بذل شيء من الدنيا لإصلاح الدين، والمداهنةَ بذل الدين لإصلاح الدنيا.

وهذا الأدب أيضا قد أكد عليه الشيخ ﷺ في رسائله، فهو داخل في عموم الأمر بتجنب كل ما يوجب ضغينة في قلوب الإخوان، والأمرِ بالإكثار من العفو عن الزلل، وغير ذلك مما يطول تتبعه وجلبه. فليجتهد المريد في العمل عليه، وليجاهد نفسه ما استطاع بترك ما يُبَعِّدُ عنه وارتكاب ما يوصل إليه. والله تعالى ولي التوفيق.

– ومنها أي من الأخلاق التي تنتج التودد والتألف: أن لا يحوج الأخ أخاه إلى المدارة، ولا يلجئه إلى الاعتذار، ولا يكلفه ما يشق عليه. لقول مولانا على ﷺ: "شر الأصدقاء من أحوجك إلى مداراة وألجأك إلى الاعتذار، وتكلفت له" اهـــ.

والجمع بين هذا الخلق والذي قبله من أكمل أوصاف أهل الطريق، وذلك بأن يعامل أخاه بحسن المداراة ولا يحوجه هو إلى أن يعامله بمثل ذلك. وهذا من أعظم أخلاق الفُتُوَّة لأن فيه بذل الإنصاف للأخ وترك المطالبة بالإنصاف منه، وهو من أعظم أخلاقهم، وأكمل آدابهم.

قال الشيخ أبو عثمان الحِيرِي ﷺ: "حق الصحبة أن توسِّع على أخيك بمالك ولا تطمع أنت في ماله، وتنصفه من نفسك ولا تطلب منه الإنصاف، وتكون تبعا له ولا تطمع أن يكون تبعا لك، وتستكثر ما يصل إليك منه وتستقل ما يصل إليه منك" اهـــ.

وبالجملة فالمعاملة على الأعواض ليست من أخلاق الأخيار، وإنما هي من أخلاق التجار.

ولا يخفى دخول هذا الأدب فيما تقدم عن الشيخ رضي الله عنه وفي غيره مما اشتملت عليه رسائله ووصاياه. فَلْيُحْكَمْ بقدر الاستطاعة وليعمل عليه. والله ولي التوفيق والهداية.

– ومن الأخلاق المنتجة للتودد والتآلف أيضا: ترك تكلف الأخ لأخيه في جميع معاملته معه. وذلك لأن التكلف تصنع من أجل الناس، وما كان كذلك لا يلبث أن يضمحل وينقلب على الضد أمره. ويقال: "التكلف تخلف" أي تأخر عن شأو الصديقين. وذلك لأنه مباين لأحوال أهل الصدق، مع ما في بعضه من منازعة الأقدار، وعدم الرضا بقسمة الجبار.

والتكلف يكون:

– بالملبوس : كأن يَلْبَسَ من أجل الناس من غير نية صالحة في ذلك،

– وبالكلام : وذلك بأن يخرج في الملاطفة إلى حد التملق. وقد يتملق الإنسان إلى حد يخرجه إلى حد النفاق والعياذ بالله تعالى. وفي الحديث (الحَيَاءُ وَالعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الإِيمَانِ، وَالبَذَاءُ

وَالبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ) قال العلماء: والمراد بالبيان هنا كثرة الكلام والتكلف للناس بزيادة تملق لهم، وثناء عليهم، وزيادة التفصح. وذلك ليس من شأن أهل الصدق.

- ويكون التكلف أيضا بالطعام الذي يقدم للضيف ونحوه. والفتوة ترك التكلف وإحضار ما حضر، وبذلك يستوي مُقَام الضيف وذهابه، وبالتكلف تؤثر مفارقته. وفي الحديث (**مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ التَّزَاوُرُ فِي اللهِ، وَحَقٌّ عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يُقَرِّبَ إِلَى أَخِيهِ مَا تَيَسَّرَ عِنْدَهُ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ إِلاَّ جُرْعَةَ مَاءٍ. وَإِنْ احْتَشَمَ أَنْ يُقَرِّبَ إِلَى أَخِيهِ مَا تَيَسَّرَ لَهُ لَمْ يَزَلْ فِي مَقْتِ اللهِ يَوْمَهُ وَلَيْلَتَهُ**) اهـ.

وحُكي أنه لما ورد أبو حفص النَّيْسابوري العراق تكلف له الجنيد أنواعا من الأطعمة، فأنكر ذلك أبو حفص، وقال: "صَيَّرَ أصحابَنا مثل المخانيث يُقدَّم لهم الألوان" اهـ. قال أبو حفص ما قاله لكراهيته التكلف الذي هو ليس من شأن الإخوان الصادقين مع إخوانهم، وإنما هو من شأن المترفهين. وإلا فمن قدم لأخوانه الألوان بنية صالحة لا يكون مذموما، بل ذلك معدود عندهم مما يستجلب به رضا الله تعالى. كما حكى عن بعض رجال الطبقات الشعراوية أنه كان يبالغ في إكرام الفقراء حتى أنه كان يصنع لهم شبابيك من الحلواء ويقدمها لهم ليكسروها ويأكلوها. وعلى هذا يجري قول بعضهم: "إذا قُصِدْتَ بالزيارة فقدم ما حضر، وإذا استزرت فلا تُبق ولا تذر" اهـ.

وكذلك اللباس المنتخب إذا كان بقصد صحيح، ونية صالحة، كالتجمل للوفود وللأعياد والجمعة ونحو ذلك مما هو من سنة النبي صلى الله عليه وسلم لا يكون من تكلف اللباس المذموم.

وكذلك ما يستعمله الصادقون من الفقراء في مدح أساتذهم من القصائد الشعرية ونحوها مما يَحْمِلُ عليه صدق المحبة، وصفاء المودة، لا يعد من تكلف الكلام المذموم.

وبالجملة فالمدار على النية، فما عمله الإنسان بنية صالحة، قاصدا به ما عند الله، لا يعد تكلفا. وما عمله بنية فاسدة، متبعا فيه أغراضه وهواه، عد تكلفا، وصار وباله عليه. والعياذ بالله. وقد ورد في الخبر (**مَنْ تَطَيَّبَ للهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَّامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ الأَذْفَرِ، وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَّامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتَنُ مِنَ الجِيفَةِ**) اهـ. وانظر [عوارف المعارف] للسهروردي رحمه الله تعالى، والعهود الكبرى والطبقات للشعراني ﵁.

وهذا الأدب أشار إليه سيدنا الشيخ ﵁ بقوله في بعض رسائله ما نصه: "استدراك، ما ذكرناه من مراعاة حقوق الإخوان فليكن ذلك في غير حرج ولا ثِقَل ولا كُلفة بما تيسر وأمكن"، ثم قال سيدنا الشيخ ﵁: "إلا أن يكون في بعض العوارض هنا يخاف من أخيه

العداوة والقطيعة أو فساد القلب فليسرع لإصلاح قلبه فإن ذلك يوجب الرضا من الله تعالى" اهـــ.

فأفاد كلامه ﷺ هنا أنه لا بأس بإتيان الأخ ما فيه كلفة في بعض الأحيان إذا كان في ذلك تطييب لخاطر أخيه بحسب ما يعرض في ذلك الوقت، وأن ذلك لا يعد من التكلف المذموم عند أهل الطريق، بل هو عندهم من الأمور التي يستجلب بها رضا الله تعالى. وذلك لأنه من جملة المدارة المحمودة التي هي بذل شيء من الدنيا لإصلاح الدين". فافهم، والله تعالى أعلم.

- ومن الأخلاق التي يدوم بها التودد والتألف أيضا: محافظة الأخ على مساعدة أخيه، وترك مخالفته في كل شيء دق أو جل، إلا فيما يخالف الشريعة المطهرة. وقد قيل: "إن من آدابهم في هذا الباب أن لا يقول الأخ لأخيه عند الدعوة : إلى أين، أو لِمَ، أو بأي سبب" قال بعضهم: "إذا قلت لصاحبك: قم، فقال: إلى أين فلا تصحبه بعدها". وقال آخر: "من قال لأخيه: اعطني من مالك، فقال: كم تريد فما قام بحق الإخاء" هـــ.

لا يسألـون أخاهـم حين يَنْدُبُهـم في النائبـات على مـا قال برهانـا

- ومن تلك الأخلاق أيضا: محافظة الأخ على سَتْرِ عورة أخيه بما أمكن. ويروى أن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه: "كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائما فكشفت الريح عنه ثوبه" قالوا: "نستره ونغطيه"، فقال: "بل تكشفون عورته"، قالوا: "سبحان الله من يفعل هذا" قال: "أحدكم يسمع في أخيه الكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها".

- ومن تلك الأخلاق التي يدوم بها التودد والتألف أيضا: تقديم من يعرف الإخوان فضلَه من إخوانهم، والتوسعةُ له في المجلس، وإيثاره بالموضع. ومستندهم في هذا ما روى "أنه ﷺ كان جالسا في صُفَّةٍ ضيقة، فجاءه قوم من البدريين فلم يجدوا موضعا يجلسون فيه، فأقام ﷺ من لم يكن من أهل بدر، فجلسوا مكانهم، فاشتد ذلك عليهم، فنزلت الآية ﴿**إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ**﴾[1] الآية". ومعلوم قيام الصديق الأكبر رضي الله لمولانا على كرم الله وجهه وإيثاره بالمجلس بجنب رسول الله ﷺ، وقوله له عليه الصلاة والسلام (**إِنَّمَا يَعْرِفُ الفَضْلَ لأَهْلِ الفَضْلِ ذَوُوهُ**).

و(حكى) أن بعض من لقى الجنيد ﷺ ورد على أبي عبد الله بن خَفِيفٍ زائراً فتماشيا، فقال له أبو عبد الله: "تقدم"، فقال: "بأي عذر". فقال له: "لأنك لقيت الجنيد وما لقيته". اهـــ

1 – المجادلة: **11**

تنبيه

قد ثبت عن سيدنا الشيخ ﷺ أنه أمر أن لا يقصد أحد من الأصحاب بجلوسه في نحو الوظيفة أعلى المجلس ولا أدناه بل يجلس حيث وجد، أي حيث انتهى به المجلس كما هي السنة في ذلك.

وقد دخل على بعض الفقراء اشتباه في الأمر من أجل أخذهم به من غير تثبت في مراد الشيخ ﷺ بهذا الكلام. فرأوا أن عدم التفسح في المجلس مأمور به. فأداهم ذلك إلى الإخلال بهذا الخُلُق، والإعراض عن العمل به بالمرة. فصاروا لا يُوَسِّعُونَ لذي السن والفضل منهم في مجالسهم، ولا يؤثرونهم بصدر المجلس إكراما لهم لسنهم وسابقيتهم في الفضل، معتقدين أن فعلهم ذلك هو الذي أمر به الشيخ ﷺ.

و لم يتأملوا كلامه ﷺ حتى يعرفوا أنه إنما نهى عن القصد إلى الجلوس فوقُ أو تحتُ، أي أعلى المجلس الذي هو صدره، ولا أدونه الذي هو مؤخره. وذلك لأن في القصد إلى الجلوس بأحد المحلين اتباعُ هوى النفس: أما في القصد إلى الأعلى فظاهر فيه حب العلو، وأما في القصد إلى الأدون فلأن فيه دسيسةً من دسائس النفس حيث تدعو إلى ما صُورَتُه صورةُ التواضع وهي تريد أن تفوق غيرها بذلك، ويشار إليها به، وهو على هذه الحال عين حب العلو أيضا، فهو كالذي قبله.

فأمر الشيخ ﷺ بمخالفتها ومجاهدتها في ذلك بنهيه ﷺ عن القصد لأحد الأمرين تنفيرا عن الوقوع في مكايد النفس الجلية منها والخفية. ولا محالة أن هذا هو الشأن في مثل هذا المقام عند جميع أهل التربية.

ويؤيد هذا الذي ذكرناه أن الشيخ ﷺ تلا بعد ذكره له قوله تعالى ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾[1] الآية، قيل له: "أهذا علو" قال: "نعم". وإرادة العلو في القصدين معا ظاهرة.

وإذا عُلِم مرادُ الشيخ ﷺ عنه فيما أمر به، علم أنه لم ينه عن التفسح في المجلس ونحوه مما اقتضته السنة من الإيثار لأهل الفضل واستعمال الأدب معهم الذي هو من أخلاق الأبرار، وسيما الأخيار. فليتنبه لهذا بقدر الإمكان، وليُنَبَّه عليه من أغفله من الإخوان، والله المستعان، وعليه التكلان.

1 – القصص: **83**

هذا، ولا يخفى على الناظر الأريب بعد ما قدمناه، دخول هذه الآداب وغيرها فيما اشتمل عليه كلام الشيخ ﷺ في رسائله ووصاياه، واندراجها فيما أشارت إليه سيرته السنية من فضائله ومزاياه.

وإنما أومأنا بطَرْفٍ خفيٍّ إلى فتح هذا الباب، تنبيها لمن عسى أن يظن أن طريق سيدنا رضي الله عنه خالية عن مثل هذه الآداب، وتعريفا له بأنها اشتملت من أصول علوم الطريق وفروعها على ما هو لب اللباب، والله تعالى أعلم.

تكميل

قد تقدم أن اختيار الصحبة والأخوة عمل، وأن كل عمل يحتاج إلى حسن الابتداء وهو النية على الوجه الذي تقدم بيانه. وقد قالوا : "إن العمل كما يحتاج إلى حسن الابتداء، كذلك يحتاج إلى حسن الاختتام". فحصول النتيجة في الصحبة والأخوة مشروط بحسن الاختتام.

وقد قال ﷺ في خبر السبعة الذين يظلهم الله تعالى بظله – على ما في بعض الروايات – (**وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ فَعَاشَا عَلَى ذَلِكَ وَمَاتَا عَلَيْهِ**). قال في [عوارف المعارف]: "فيه إشارة إلى أن الأخوة والصحبة من شرطهما حسن الخاتمة حتى يكتب لهما ثواب المواخاة". قال: "ومتى فسدت المواخاة بتضييع الحقوق فيها – يعني في آخر الأمر– فسد العمل من الأول. ومن هنا كان الشيطان لعنه الله أشد حرصا على إفساد ما بين المتواخيين في الله تعالى. وقد قالوا : ما حسد الشيطان متعاونين على بر حسده على متواخيين في الله، متحابين فيه، فإنه يجهد نفسه، ويحث قبيله على إفساد ما بينهما". اهـــ أي يوقع بينهما المخالفة في أمر ما، فيستوحش بعضهما من البعض.

قال إمام الطريقة الجنيد ﷺ: "ما تواخى اثنان في الله تعالى واستوحش أحدهما من صاحبه إلا لعلة في أحدهما. فالمواخاة في الله أصفى من الزلال. وما كان لله فالله مطالب بالصفاء فيه، وكل ما صفا دام، والأصل في دوام صفائه عدم المخالفة". اهـــ

دقيقة

قالوا: "إن أقل ما يزينه الشيطان للأخ في معاملة أخيه التساهل في القيام بحقه اتكالا على ما بينهما من المودة". وهذا من مكْرِهِ الخفيِّ، والعياذ بالله، ولذلك نبه عليه مشايخ الطريق رضي الله عنهم.

قال عبد الله بن الجَلاَء : "لا تضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة والصداقة، فإن الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقا لا يضيعها إلا من لم يراع حقوق الله تعالى" اهـــ.

تذييل

في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (**الْمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ عَلَى عَمُودٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ فِي رَأْسِ العَمُودِ سَبْعُونَ أَلْفَ غُرْفَة، مُشْرِفُونَ عَلَى أَهْلِ الجَنَّةِ، يُضِيءُ حُسْنُهُمْ لأَهْلِ الجَنَّةِ كَمَا تُضِيءُ الشَّمْسُ لأَهْلِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ أَهْلُ الجَنَّةِ: انْطَلِقُوا بنَا نَنْظُرُ إِلَى الْمُتَحَابِّينَ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا أَشْرَفُوا عَلَيْهِمْ أَضَاءَ لَهُمْ حُسْنُهُمْ كَمَا تُضِيءُ الشَّمْسُ لأَهْلِ الدُّنْيَا، عَلَيْهِمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٍ، مَكْتُوبٌ عَلَى جِبَاهِهِمْ: هَؤُلاَءِ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ**).

وعن سيدنا معاذ رضي الله عنه أنه قال لمن قال له، "إني أحبك في الله" : "أبشر ثم أبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (**تُنْصَبُ لِطَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ كَرَاسِي حَوْلَ العَرْشِ يَوْمَ القِيَّامَةِ، وُجُوهُهُمْ كَالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، يَفْزَعُ النَّاسُ وَلاَ يُفْزَعُونَ، وَيَخَافُ النَّاسُ وَلاَ يَخَافُونَ، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**)، فقيل: "من هؤلاء يا رسول الله" قال : (**الْمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**).

وروى عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (**يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِينَ فِي، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِي، والْمُتَبَاذِلِينَ فِيّ، وَالْمُتَصَادِقِينَ فِيّ**) اهـ.

وفي هذا القدرمما قصدنا إيراده في هذا المطلب كفاية، والله ولي التوفيق والهداية.

المطلب الخامس

فِي بَيَانِ فَضِيلَةِ حُسْنِ الاِسْتِمَاعِ وَبَعْضِ مَا يَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الآدَابِ المُوصِلَةِ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى إِلَى طَرِيقِ الفَهْمِ وَكَمَالِ الاِنْتِفَاعِ

اعلم أن هذا المطلب في طريق أهل الله تعالى من أجل المطالب قدرا، وأعظمها فائدة وأسناها فخرا. وذلك لأن حسن الاستماع كما قيل أساس كل خير وسعادة، ومرقاة سامية لإدراك كل كرامة وإفادة. فما أجدره بالتقديم أمام جميع الوسائل والمطالب، وما أحقَّه بأن تناط به جميع مباحث المقاصد والرغائب.

واعتبار هذا على الجملة في بساط التحقيق، فيما ذكره أئمة الهدى وأعلام الطريق، من أنه لم يظهر وجود طريق السعادة، ولا علم الفرق بينها وبين طريق الشقاء، إلا بالقول الإلهي، والسمع الكوني. قالوا: "فما ثم إلا قول وسمع، غير هذين لم يكن، فلولا القول ما علم مراد الحق سبحانه منا، ولولا السمع ما وصلنا إلى ما قيل لنا. فأول شيء علمناه من الحق القول منه والسمع منا". وقد قدم سبحانه في كتابه الحكيم السميع على العليم وعلى البصير، فقال تعالى ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[2]. فافهم.

ولهذا الأمر الأكيد، جعلنا هذا المطلب من جملة المطالب المقدمة بين يدي المقصود من هذا التقييد. فنقول، معتمدين على مدد من له القوة والحَوْل، طامعين في فضل من ليس إلا منه المنة والطول.

قال العارف بالله تعالى الشيخ أبو حفص السهروردي ﷺ: "قال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر" اهـ، يريد أن أول العلم حسن الاستماع بدليل ترتب الفهم عليه، إذ الفهم إنما يحصل بحسن الاستماع لا بمجرد الاستماع. فافهم.

وقد قيل في قوله تعالى ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[3] وقوله سبحانه ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[4] الآيتين: "إن في ذلك تعليما من الله تعالى لرسوله ﷺ حسن الاستماع". وقال بعضهم: "تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام" اهـ.

---

1 – التوبة: 98
2 – الحج: 61
3 – طه: 114
4 – القيامة: 16

وحسن الاستماع يكون بكمال الأدب فيه. قال يوسف بن الحسين: "بالأدب يفهم العلم، وبالعلم يصح العمل، وبالعمل تنال الحكمة، وبالحكمة يقام الزهد، وبالزهد تترك الدنيا، وبترك الدنيا يرغب في الآخرة، وبالرغبة في الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى" اهـــ.

فعلم من قوله: "بالأدب يفهم العلم"، أن حسن الاستماع يحصل بكمال الأدب في الظاهر والباطن: فأما كمال الأدب في الباطن فيكون بإخلاص النية في القصد إلى الاستماع، وبتطهير المحل بالتوبة والاستغفار، وبتحقيق الافتقار إلى الله تعالى واللجإ إليه، وسؤاله بلسان الاضطرار أن يعلمه ما لم يكن يعلم. وعن كمال الأدب في الباطن ينشأ كمال الأدب في الظاهر عند المحققين من أهل الطريق. فينشأ عما تقدم من كما الأدب في الباطن الهيبة والوقار، وخشوع الجوارح والسكون، والتفرغ من الشواغل، ونحو ذلك مما هو عنوان حسن الأدب في الباطن.

وَقَدْ حُكي أن الشيخ أبا حفص النيسابوري لما ورد العراق وجاء إليه الجنيد، فرأى أصحاب أبي حفص وُقوفا على رأسه يأتمرون لأمره ولا يخطئ أحد منهم، فقال: "يا أبا حفص أدبت أصحابك أدب الملوك"، فقال أبو حفص: "لا يا أبا القاسم، ولكن حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن" انتهى. ويشهد له حديث (**لَوْ خَشَعَ قَلْبُه لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ**) الحديث.

فتحصل أن حسن الاستماع إنما يكون بكمال الاستعداد لذلك بحسب مقام المستمع في ذلك وحاله. ثم هذا إنما هو في الأصل عند أهل هذا الشأن في سماع كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ اللذين لا تنقضي فوائدهما، ولا تنفد على مر الدهر عجائبهما.

وألحق أئمة المشايخ رضي الله عنهم بسماع القرآن العظيم والحديث الشريف مطالعة الكتب المتضمنة لما استنبط منهما بطريق التعريف، من العلوم السنية والنور البديع والسر المنيف.

ومما يشير إلى أن حسن الاستماع إنما يكون بالاستعداد قوله سبحانه وتعالى ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ**﴾[1] قال بعضهم: "لو علمهم أهلا للاستماع لفتح آذانهم للاستماع. فمن تملكته الوساويس، وغلب على باطنه حديث النفس، لا يقدر على حسن الاستماع" اهـــ.

ويشير إلى هذا أيضا قوله تعالى ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾[2] قال الفخر الرازي في [تفسيره]: "أي قلب موصوف بالوعي، أي

1 – الأنفال: **23**
2 – ق: **37**

قلب واع. يقال: فلان له مال أي كثير، فالتنكير يدل على معنى في الكمال" اهـ الغرض منه، وفيه الإشارة إلى ما ذكرناه من الاستعداد.

قال في [العوارف]: قال يحيى بن معاذ الرازي: القلب قلبان: قلب قد احتُشِي بأحوال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الطاعة لم يدر ما يصنع، وقلب قد احتشى بأحوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع" اهـ. وهذا القلب الثاني هو الذي حصل له الاستعداد لدَرْك العلوم الفاخرة، وفهم الأسرار الباهرة.

وقال بعضهم في الآية: لِمَن كان لَه قَلب سَلِيم من الأغراض والأمراض". وقال ابن سمعون في الآية: "لِمن كان له قلب سليم يعرف آداب الخدمة". وآداب القلب ثلاثة أشياء: فالقلب إذا ذاق طعم العبادة أعتق من رق الشهوة، فمن وقف عن شهوته وجد ثلث الأدب، ومن افتقر إلى ما لم يجد من الأدب بعد الاشتغال بما وجد فقد وجد ثلثي الأدب، والثالث امتلاء القلب بالذي بدأ بالفضل منه تفضلا" اهـ.

وقد قال محمد بن علي الترمذي رحمه الله تعالى: "موت القلب من شهوات النفس، فكلما رفض شهوة نال من الحياة بقسطها، والسماع للأحياء لا للأموات: قال تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾[1] الآية" اهـ.

ومدار هذه العبارات كلها على حصول كمال الاستعداد للسماع حسبما تقدمت الإشارة إليه. فالعبد إذا حصل له الاستعداد للسماع، واتصف بالحياة التي يتأهل بها عند الله تعالى للإسماع، سمع كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، وكذا ما استنبط منهما حق السماع، وحظي في جميع معاملاته بأكمل حالات الاتباع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[2] قالوا: "وفي هذه الآية الكريمة التصريح بالثناء على المتصفين بحسن الاستماع، الناشئ عنه حسن الاتباع، بأنهم الذين هداهم الله وأنهم أولو الألباب. وناهيك بهذا فخرا لمن أهله الله تعالى لهذه المزية العظيمة، والخصوصية الجسيمة".

تنبيهان

الأول: إذا عرفت أن مطالعة كتب العلم والأخبار، وسير الصالحين وحكاياتهم، وأنواع الحكم والأمثال، ونحو ذلك، كلها ملحقة بالسماع في هذا الباب، فاعلم أن من الأدب في هذا

---

1 – النمل: **80**
2 – الزمر: **18**

المقام ما ذكره في [عوارف المعارف] من أن الإنسان إذا أراد مطالعة كتاب لا يبادر بذلك إلا بعد التثبت، والإنابة، والرجوع إلى الله تعالى، وطلب التأييد فيه. فإنه قد يرزق حينئذ بالمطالعة ما يكون مزيدا لحاله. قال: "ولو قدم الاستخارة لذلك لكان حسنا. فإن الله تعالى يفتح عليه باب الفهم والتفهم مَوْهَبَةً من الله تعالى، زيادة على ما يتبينه من صورة العلم. فللعلم صورة ظاهرة وسر باطن هو الفهم. والله تعالى قد نبه على شرف الفهم في قوله ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾[1] فأشار سبحانه وتعالى إلى الفهم بمزيد اختصاص وتمييز عن الحكم والعلم. وقد قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾[2] فإذا كان الْمُسْمِعُ هو الله تعالى فإنه يسمع تارة بواسطة اللسان، أي لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام ومن في معناهم من ورثتهم، وتارة بما يَرْزُق في مطالعة الكتب من التبيان. فصار ما يفتح الله به في مطالعة الكتب على معنى ما يرزق من المسموع ببركة حسن الاستماع. فليتفقد العبد حاله في ذلك، وليتعلم علمه وأدبه، فإنه باب كبير من أبواب الخير، وعمل صالح من أعمال المشايخ لاستفتاح أبواب الرحمة، والمزيد من كل سر، بفضل الله تعالى" اهـــ.

ومن بعض كتب حجة الإسلام الإمام الغزالي رضي الله عنه في وصية أوضحها، ونصيحة مَحَّضها، ما نصه: "أيها الطالب للعلوم، والناظر في التصانيف، والمستشرف على كلام الناس وكتب الحكمة، ليكن نظرك فيما تنظر فيه بالله، ولله، وفي الله. لأنه إن لم يكن نظرك به وكَّلَكَ إلى نفسك أو إلى من جعلت نظرك به. وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار عملك لغيره ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[3]. وكذلك إن لم يكن نظرك فيه فقد أثبتَ معه غيره، ولاحظتَ بالحقيقة سواه. وإذا نظرت في كلام أحد من الناس ممن قد شهر بالعلم، فلا تنظر بازدراء، ولا تقطع له بصحة، ولا تقطع عليه بفساد. وليكن تحسين الظن أغلب عليك، حتى يزول الإشكال عنك بما تتيقن من معانيه. وإذا رأيت له حسنة وسيئة، فانشر الحسنة، واطلب المعاذير للسيئة. ولكل عالم عذر، وله في بعض ما يأتي به احتجاج. وناهيك بما جرى بين ولي الله تعالى الخضر وكليمه موسى عليهما السلام. وإذا ظهر لك من كلام عالم إشكال، يؤذن في الظاهر بمحال أو اختلال، فخذ ما ظهر لك علمه، ودع ما اعتاص عليك فهمه، وكِلِ العلمَ فيه إلى الله تعالى. فهذه وصيتي فاحفظها. اهـــ ينقل بعض الفقهاء له في نوازله، رحمه الله تعالى، وجزاه خيرا.

فائدة مما ينبغي أن يعتني به مريد المطالعة لكتب العلم أن يقول قبل الشروع بحضور قلب: "اللهم إني أستودعك جميع ما انظره في هذا الكتاب حتى ترده على في وقت احتياجي

---

1 – الأنبياء: **79**
2 – فاطر: **22**
3 – الكهف: **110**

إليه"، وهو غاية في الحفظ والوعي بفضل الله تعالى. وقد كنت أعمل عليه منذ استفدته فيما أطالعه من الكتب، وكذا إذا جلست إلى أحد من الفضلاء بقصد المذاكرة فأقول فيها: "اللهم إني أستودعك جميع ما أستفيده من هذا السيد أو في هذا المجلس حتى ترده علي الخ. فكنت أجد بحمد الله بركة ذلك مع ضعف استعدادي، وعدم تأهلي، من فضل الله تعالى:

ما كنت للوصال أهلا ولكن أنتم بالوصال أطمعتموني

التنبيه الثاني: من الأدب في هذا المقام أيضا، ما ذكره في [العوارف] أيضا، وهو: "أن العبد إذا أراد أن يطالع شيئا من الحديث والأخبار، يعلم أنه قد تكون مطالعة ذلك بداعية النفس، وقلة صبرها على الذكر والتلاوة والعمل، فيتروح بالمطالعة كما يتروح بمجالسة الناس ومكالمتهم. فليتفقد الفطن نفسه في ذلك، ولا يستحلي مطالعة الكتب إلى حد يأخذ من وقته" اهـ.

قلت: وعلى هذا الأدب رأيت عمل بعض الفضلاء الأعيان من خاصة أصحابنا الموفقين حفظه الله تعالى. وقد استعان على ذلك بضابط حسن، وهو أنه جزأ أوقاته الليلية والنهارية، فجعل جزءا للتدريس، وجزءا لمطالعته، وجزءا لإقامة أوراده، وجزءا لنومه، وهكذا سائر الأعمال المتعاقبة بالليل والنهار. فلم يأخذ شيء منها بوقته. وهو، كما لا يخفى، نظر سديد، لا يصدر إلا عن رأي رشيد، مؤيد بالعناية والتوفيق من الرب المجيد.

تكميل

قد مثل بعض الحكماء تفاوت الناس في الاستماع فقال: "كالباذر خرج ببذره، فملأ منه كفه، فوقع منه شيء على ظهر الطريق، فلم يلبث أن انحطت عليه الطير فاختطفته. ووقع منه شيء على الصفوان، وهو الحجر الأملس، عليه تراب يسير وندى قليل، فنبت حتى إذا وصلت عروقه إلى الصفوان لم تجد مساغا تنفذ فيه فيبِس. ووقع منه شيء على أرض طيبة فيها شوك نابت فنبت، فلما ارتفع خنقه الشَّوك فأفسده واختلط به. ووقع منه شيء على أرض طيبة ليس على ظهر الطريق، ولا على الصَفوان، ولا على أرض فيها شوك، فنبت ونما وصلح.

فمثل الباذر مثل الحكيم. ومثل البذر كمثل صواب الكلام. ومثل ما وقع على ظهر الطريق مثل الرجل يسمع الكلام وهو لا يريد أن يسمعه، فلم يلبث الشيطان أن يختطفه من قلبه فينساه. ومثل الذي وقع على الصفوان مَثل الرجل يستمع الكلام فيستحسنه، ثم تفضي الكلمة إلى قلب ليس فيه عزم على العمل فينسخ من قلبه. ومثل الذي وقع في أرض طيبة فيها شوك، مثل الرجل الذي يستمع إلى الكلام وهو ينوي أن يعمل به، فإذا اعترضت له الشهوة قيدته عن النهوض بالعمل فترك ما نوى عمله لغلبة الشهوة. كالزرع يُخْتَنقُ بالشوك. ومثل الذي وقع في أرض طيبة ليس على ظهر الطريق، ولا على الصفوان، ولا على ذات شوك، مثل المستمع الذي ينوي عمله، فيفهمه ويعمل به ويجانب هواه" اهـ،

وإنما يحصل هذا بالاستعداد، والبراءة من الشهوة والهوى، كما تقدمت الإشارة إليه. وبيان هذا أن للشهوة والهوى حلاوة قد أُشْربت لذتَها النفس، فهي تركَن إليها. وتلك اللذة هي التي تختنق النبْت كالشوك. وعندما يحَصل الاستعداد باحتراق الشهوات والهوى بنار الذكر، ينازل القلبَ حلاوةُ الحب الإلهي، والحب الإلهي يعلق الروح بالحضرة القدسية. ومن قوة انجذاب الروح إلى الحضرة الإلهية بداعية الحب الصرف يستتبع الروحُ القلب والنفس. وحلاوة الحب للحضرة الإلهية تغلب حلاوة الهوى، لأن حلاوة الهوى ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنَ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾[1] لكونها لا ترتقي عن النفس. وحلاوة الحَب الإلهي ﴿كشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[2] . فإذا سمع هذا الذي حصل له الاستعداد الكلمة من كلام الله ورسوله ﷺ يتشربها بالرَوح والقلب والنفس، ويفَدِيها بكليته، ويقول:

أشم منك نسيما لست أعرفه ... كأنّ لمياء جرّت أذيالا

فتعمه الكلمة وتشتمله ويصير كل شعرة منه سمعا، وكل ذرة منه بصرا، فيسمع الكل بالكل، ويبصر الكل بالكل، ويقول:

إن تأملتكم فكلي عيونٌ ... أو تذكرتكم فكلي قلوبُ

وفي هذا القدر من الكلام في حسن الاستماع، كفاية في التوصل إلى باب الاطلاع. وبالله التوفيق، وعليه الاعتماد في الهداية إلى سواء الطريق.

---

1 – إبراهيم: 26

2 – إبراهيم: 24

المطلب السادس

فِي بَيَانِ اخْتِلاَفِ أَوْلِيَاءِ اللهِ تَعَالَى فِي الطَّرَائِقِ وَالمَذَاهِبِ وَالإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ مَنْشَأَ ذَلِكَ هُوَ تَبَايُنُ الأَذْوَاقِ وَالمَشَارِبِ

لا يخفى على الأريب، وجه المناسبة في اشتمال هذه المقدمة على هذا المطلب العجيب، لما تنتجه للمريد مطالعته، وتثمره للسالك مراجعته، من الفوائد العظيمة، والمنافع الجسيمة. ولو لم يكن إلا سلامته من الوقوع في مهاوى الإنكار، والتردي فيما تردى فيه كثير من الأغمار، بالانتقاد على الأولياء الأبرار، والعارفين الكبار، وذلك بما استفادوه من الأقيسة الخيالية، والتخمينات الوهمية، باستقرائهم السقيم ومذهبهم الفاسد، في اعتقادهم أن الولاية لا تجري في كل زمان وفي كل شخص إلا على قانون واحد، وأنها مما تشمله الحدود ويدخل تحت محيطات الضوابط والقواعد.

وقد صرح في [الذهب الإبريز] بأنه: لا يصح لأحد أن يحجر الفضل العظيم، فيقطع على المولى الكريم، بأنه لا يختار لبساط كرامته، ولا يصطفى لحضرة قربه ومشاهدته، إلا من صدقت عليه تلك الحدود والضوابط، واستَكْمَلَتْ فيه تلك العلاماتُ والشرائط. قال: "وقد يبلغ الجهل بأهل الإنكار والجحود، إلى نفى الولاية عن كل موجود، لما استحكم في قلوبهم من حصرها في ضوابط معلومة، وتحقيقها بقواعد مرسومة. فترى الواحد منهم يعرض على ما معه من القواعد والضوابط والآراء والأنظار، أحوال كل واحد ممن يراه أو يسمع به من الأولياء الكبار، فيجدها لا تنطبق على أحواله، فينفي عنه الولاية بكل وجه وكل اعتبار، ويصير مآل حاله الكاسد، أنه يؤمن بوليّ لا وجود له في الشاهد. ولم يدر أن الولاية مجرد اصطفاء من الله تعالى الفعال لما يريد، لمن يشاء ويختار من العبيد، وأنها ليس مما يدرك بالتخمين، ولا مما يقدر على ضبطه أحد من المخلوقين" اهـــ بمعناه.

ولهذا الذي اشتملت عليه هذه الفائدة الجليلة، من النكت البديعة والمنافع الجزيلة، حسن منا إيراد هذا المطلب في جملة مطالب هذا الكتاب، ما هو إن شاء الله تعالى إلا الخالص منها واللباب، فنقول، والله تعالى الموفق للصواب:

اعلم أَنَارَ الله قلبي وقلبك بأنوار الإيمان واليقين، وأمدنا جميعا بما أمد به أولياءه المتقين، أن الاتساع الإلهي، الذي لا يحتمل الحصر ولا التناهي، يأبى انحصار المواهب الاختصاصية، والمنح الاصطفائية، في نوع من أنواع الصفات الكمالية، أو صنف من أصناف النعوت الجلالية والجمالية، لأن المفيض لتلك المواهب والعطايا، والمخصص بتلك المنائح والمزايا، هو المولى

الجواد الكريم، ذو الفضل العظيم، والطول الجسيم، الفاعل المختار، الموصوف بكمال الاقتدار، الذي لا يسأل عما يفعل ويخلق ما يشاء ويختار.

وإذا كان سبحانه هو الواهبَ لتلك المواهب، المانحَ لتلك التخصيصات والرغائب، وكان سبحانه فتاحا على الدوام، وهابا بلا انقطاع ولا انصرام، فكيف تنحصر مواهبه لأوليائه في شيء من الأنواع والأجناس، أو تدخل منحه لخاصة أصفيائه تحت حيطة ضابط أو قياس.

فبهذا الأصل إن أحكمْته علما، وفتح الله عليك في التحقُّق به ذوقا وفهما، يسهل عليك الاطلاع على توجيه اختلاف مذاهب الأولياء وعدم توافق طرائقهم، وينحل لك ما يُشْكِلُ عليك من تباين أذواقهم وحقائقهم، وتعرف موجب الإنكار من البعض منهم على البعض، ومعاملته إياه بالحط من قدره والغض. فحينئذ لا يستفزك ظاهر أحوالهم، ولا يَحْجُبُك عن الاستمداد منهم والاقتباس من نور كمالهم. وتَرْسَخُ قدمك إن شاء الله تعالى في المتابعة لمن اتخذته منهم إمامك، فألقيت إليه قيادك وملكته زمامك. فتظفرُ يمينك بكيمياء السعادة، وتستنتج نتائج النُّجْح من مقدمات هذه الإفادة، وتعثر ذوقا على موقع الإشارة من قوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1].

ولنذكر من كلام العلماء العاملين، والمشائخ الكاملين، ما يدل لتحقيق ما قصدنا الإشارة إليه في هذا المقام.

قال الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى في مؤلفه الذي سماه [الخبر الدال، على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال] ما نصه: ومن حديث ابن مسعود رضي الله عنه "إن لله عز وجل في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم عليه السلام. ولله في الخلق أربعين قلوبهم على قلب نوح عليه السلام. ولله في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام. ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبريل عليه السلام. ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام. ولله في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام.

فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة. فبهم يحيي ويميت، ويمطر وينبت ويدفع". قيل لعبد الله بن مسعود: "كيف يحيي ويميت" قال "لأنهم يسألون الله تعالى إكثار الأمم فيكثرون، ويدعون

---

1 – يونس: **26**

على الجبابرة فَيُقْصَمُونَ، ويَسْتَسْقُونَ فَيُسْقَوْنَ فَتُنْبِتُ [لهم][1] الأرض، ويدعون فَيُدْفَع بهم أنواعُ البلاء". أخرجه ابن عساكر" ا هـــ، الغرض هنا.

وعنده في مؤلفه المذكور أيضا ما نصه: "وفي كفاية المعتقد لليافعي نَفَّع الله ببركاته ما نصه: قال بعض العارفين: الصالحون كثيرون مخالطون للعوام لصلاح الناس في دينهم ودنياهم. والنجباء في العدد أقل منهم. والنقباء في العدد أقل منهم وهم مخالطون للخواص. والأبدال في العدد أقل منهم وهم نازلون في الأمصار العظام، لا يكون منهم في المصر إلا الواحد بعد الواحد، فطوبى لأهل بلدة كان فيها اثنان منهم. والأوتاد واحد باليمن، وواحد بالشام، وواحد بالمغرب، وواحد بالمشرق. والله تعالى يدير القطب في الآفاق الأربعة من أركان الدنيا كدوران الفلك في أفق السماء. وقد سُتِرت أحوال القطب، وهو الغوث، عن العامة والخاصة غيرة من الحق عليه، غير أنه يُرى عالما كجاهل، أبله كفطَن، تاركا آخذا، قريبا بعيدا، سهلا عسيرا. وكُشفت أحوال الأوتاد للخاصة والعارفين. وسُترت أحوال النجباء والنقباء عن العامة خاصة، وكُشف بعضهم لبعض. وكشفت أحوال الصالحين للعموم والخصوص ليقضي الله أمراً كان مفعولا.

"وعدة النجباء ثلاثمائة. والنقباء أربعون. والبدلاء قيل ثلاثون، وقيل أربعة عشر، وقيل سبعة، وهو الصحيح. والأوتاد أربعة. فإذا مات القطب جُعل مكانه خيار الأربعة، وإذا مات أحد من الأربعة جعل مكانه خيار السبعة، وإذا مات أحد السبعة جعل مكانه خيار الأربعين، وإذا مات أحد الأربعين جعل مكانه خيار الثلاثمائة، وإذا مات أحد الثلاثمائة جعل مكانه خيار الصالحين. وإذا أراد الله سبحانه أن يقيم الساعة أماتهم أجمعين، وبهم يرفَع عن عباده البلاء، ويُنْزِل قطر السماء".

"وقال بعض العارفين: والقطب هو الواحد المذكور في حديث ابن مسعود ﵁ أنه على قلب إسرافيل، ومكانه في الأولياء كالنقطة في الدائرة التي هي مركزها، به يقع صلاح العالم" اهـــ.

وكلام اليافعي هذا صريح في أن من الأولياء من ليس من أهل الدائرة وهم الصالحون وعددهم كثير. ويؤخذ منه أنهم هم المعبر عنهم في حديث ابن مسعود بالعامة. وكلامه أيضا صريح في أن أحوال الأولياء منها ما لا يُكشف لأحد، ومنها ما يكشف للخاصة منهم فقط، ومنها ما يكشف للخاصة والعامة، أي والعامة منهم، وهم الصالحون لا غير، وإلا فمن أين لغير الولي أن يعرف الولي. فكلامه هذا كالتفسير لحديث ابن مسعود رضي الله عنه. فافهم ذلك.

---

1 – في نسخة السيد المعطي بن محمد المسفيوي رحمه الله

وهنا دقيقة، وهي أن قوله "وكشفت أحوال الصالحين للعموم والخصوص يقتضي أن من ليس من أهل الدائرة من الصالحين يعرفه كل من كان من أهل الدائرة، وكذا من ليس من أهل الدائرة مثله. وليس المنصوص لأئمة الطريق كذلك. ففي [النزهة] للعارف بالله تعالى سيدي أحمد بن عبد القادر التَّسْتَاوْتِي ﷺ ما نصه: "ويحكى عن الخضر عليه السلام أنه اجتمع ببعض الصالحين، فقال له ذلك الصالح: هل تعرف الأولياء جملة فقال عليه السلام: أعرف أهل الدائرة، وغيرهم منهم من أعرفه ومنهم من لا أعرفه. فسأله عن عدد أهل الدائرة، فقال: هم واحد، وثلاثة، وأربعة، وسبعة، وعشرة، وأربعون، وسبعون، وثلاثمائة. ولو اطلع السبعون على الأربعين لرأوا سفك دمائهم حلالا كما وقع لي مع موسى عليه الصلاة والسلام. فليس الشارب من الماء كالشارب من العسل المصفى، ولا الشارب من العسل كالشارب من الخمر، ولا الشارب من الخمر كالشارب من اللبن، وهو شراب أهل التمكين، ولا الساقي لهم من هذا كالساقي لهم من هذا، ولا النَّشْوان من هذا كالنشوان من هذا. وقد تدفع هذه الكؤوس كلها بيد واحد يسقى كل وارد على حسب ما سبق له يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ اهـــ.

وقد دل كلام الخضر عليه السلام على ما يتأيد به كلام اليافعي من أن لله تعالى أولياء كثيرين من غير أهل الدائرة.

وقوله: "منهم من أعرف ومنهم من لا أعرفه"، نص في أن الصالحين، يعني عامة الأولياء الذين ليسوا من أهل الدائرة، يُعرف بعضُهم لا كلُّهم لأنه إذا كان الخضر عليه السلام لا يعرف كلهم فغيره بالأولى. والله تعالى أعلم.

وقد قال سيدنا الشيخ ﷺ فيما ذكره عنه صاحب [الجامع] رحمه الله تعالى: إن الأولياء الذين ليسوا من أهل [الدائرة][1] كثيرون، ومع كثرتهم فهم طوائف، كل طائفة لها عدد لا ينقص. فإذا مات الواحد منهم خلفه غيره في مرتبته". قال ﷺ: "ومنهم طائفة تسمى الضنائين عددهم أربعة آلاف". قال: "وكذلك الذخائر، طائفة أخرى وعددهم أربعة آلاف أيضا". قال: "ومرتبة هاتين الطائفتين أنهم يعتقدون وجود الكون ولا يرونه لأنهم غرقى في بحار الألوهية" اهـــ وهو مؤيد لما تقدم عن اليافعي أيضا.

ثم إن قول الخضر عليه السلام: "ولو اطلع السبعون على الأربعين لرأوا سفك دمائهم حلالا"، يريد أنهم لو اطلعوا على ما يتحققون به من الحق في بواطنهم لأفتوا بسفك دمائهم. وذلك لأن كل واحد منهم يطلعه الله تعالى على ما لم يطلع عليه غيره، فيطلع هذا على ما لم يطلع عليه الآخر، ويطلع الآخر على ما لم يطلعه هو أيضا عليه بحسب ما اقتضته المشيئة

1 – في نسخة السيد المعطي بن محمد المسفيوي رحمه الله

الربانية، والقسمة الإلهية ومن هنا جاء إنكار بعضهم على بعض حتى ربما أفضى الأمر في ذلك الإنكار إلى التكفير.

ورأيت في [حاشية الابار] على مختصر الشيخ خليل عند قوله فيه: "ولاَ عالمٍ على مثله" ما نصه: "ذكر صاحب كتاب المعارج أنه قد يفضى إنكار القوم بعضهم على بعض إلى أن يكفر بعضهم بعضا، وذلك من أجل أن يحكم بحاله على غيره. وقال أبو حامد في إحيائه: ولذلك تختلف أجوبتهم. وهذا معنى قول تاج الدين: تنوعت أجناس الأعمال، لتنوع واردات الأحوال. وواردات الأحوال ما يرد على القلوب من المعارف. فقد يكون وارد يوجب قبضا، وآخرُ يوجب بسطا، أو هيبة، أو أنسا، أو رجاء، أو خوفا. وانظر قضية يحيى وعيسى عليهما السلام حين التقيا فقال أحدهما لصاحبه: كأنك آمن من مكر الله؛ فقال له الآخر: كأنك آيس من رحمة الله؛ فتنوع ما ظهر عليهما لتنوع وارد حاليهما. وكل منهما صادق بنسبته. فلهذا يجب تحسين الظن بالجميع، وأن لا يسمع كلام البعض في البعض، لأجل غيرتهم على الدين لا تحاسدِهم اهـــ بلفظه من الحاشية المذكورة.

وقد جرى التعبير بمثل عبارة الخضر عليه السلام في قوله: "لرأوا سفك دمائهم" إلخ على ألسنة كثير من السلف والخلف. فقد روى عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: "ملأت من النبي ﷺ وعاءين، أما أحدهما فها أنا أبثه لكم، وأما الآخر فلو بثثته لكم لقطع مني هذا البلعوم" اهـــ ومعلوم أنه لا يقطع منه البلعوم إلا بإفتاء من لم يطلعه الله تعالى على ما اختص به من العلم الذي يتحققه في باطنه عن رسول الله ﷺ.

وروى مثل ذلك عن مولانا علي كرم الله وجهه.

وعليه قول إمام الطائفة الجنيد ﷺ: "لا يبلغ أحد درجة الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صدّيق بأنه زنديق" اهـــ قال الشيخ محيي الدين رضي الله عنه: "وذلك لأنهم يعلمون من الله تعالى ما لا يعلمه غيرهم". قال: "وهؤلاء هم حملة العلم الذين كان يقول فيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين يضرب بيده على صدره ويتنهَّد: إن ههنا علوما لو وجدت لها حملة" اهـــ.

وكثيرا ما كانت تجري هذه العبارة على لسان سيدنا الشيخ رضي الله عنه كما يعلم من استقراء كلامه في رسائله وغيرها. ولعلك تقف على بعض ذلك أثناء الكلام على أبيات النظم إن شاء الله تعالى.

وفي قول إمام الطائفة رضي الله عنه: "لا يبلغ أحد درجة الحقيقة" إلخ، إرشاد إلى أن كل واحد من الأولياء له ذوق خاص به في مرتبته الخاصة به وإن اشتركوا في المقام. وقد صرح سيدنا ومولانا الشيخ رضي الله عنه بذلك أتم تصريح، وبسط القول فيه بما يغنى عن التلويح. ونص كلامه رضي الله عنه في بعض أجوبته لمن سأله عن شطحات الأولياء رضي الله عنهم أجمعين: "إن الله تعالى يفيض على كل ولي في حضرته من الخيرات الكثيرة، والمنح الجسيمة، مالا يعلم قدره إلا معطيه.

وكل واحد من العارفين له حضرة خاصة به. وربما اشترك في الحضرة الواحدة جماعة، لكنهم يتفاوتون فيها بحسب القِسم الإلهية.

"فإذا عرفت هذا فاعلم أن الله تعالى قد يمنح بعضهم أسرارا خاصة في الحضرة الخاصة به أو المشترَكة، ويقال له: هذا لم يعط لأحد قبلك ولا يعطي لأحد بعدك. فيتلكم به، ويصرح بأنه في أعلى المراتب والمقامات. ويأتي مَنْ بعدَه فيقول مثل مقالته أو أكثر. ويأتي آخر وآخر حسبما هو معلوم من شطحات الأولياء.

ثم قال ﷺ جوابا عما أورده السائل على هذا الكلام ما نصه: "إن الأولياء صادقون فيما يدعي كل واحد منهم لأن كل واحد يعطَى في حضرته ما لم يعط لغيره ويسمع في حضرته الخطاب به". قيل له: "كيف نصنع بمراتب أهل الديوان، فإن بعضها أعلى من بعض بلا ريب كمرتبة القطب مع غيره" فقال ﷺ ما حاصله: "إن ذلك الذي يُعطَى للولي في حضرته الخاصة به إنما هو مزية في حقه وهي لا تقتضي تفضيله على من هو أعلى منه كغير القطب مثلا مع القطب".

ثم قال ﷺ: "وذلك كما يقع لبعض العارفين من أنه يدرك من العلوم المحمدية أكثر من القطب مع أنه لا يشم رائحة لمقامه، ولا يقدر على تجلياته. وكقضية سيدنا الخضر مع سيدنا موسى عليهما السلام مع ما ذكر من أن لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ألفَ مجلس مع الله تعالى في مدة حياته، كل مجلس وهبه الله تعالى من العلوم ما يَبْهَر عقول الخلق أجمعين، وكالقطب المكتوم مع غيره". ثم قال ﷺ: "وليس مرتبة كاملة من جميع الوجوه إلا لسيد الوجود ﷺ" اهــ.

وقد وقفت لبعض أهل التحقيق، ممن له اليد الطولى في علوم الأذواق وأسرار الطريق، في بعض مؤلفاته المتلقاة عند الخاص والعام، بالقبول التام، على كلام موافق لكلام الشيخ ﷺفي إفادة أن كل واحد من الأولياء يختص بما لا يشاركه فيه غيره وإن كان أعلى منه مقاما، ونصه: "واعلم أنه لما كانت هذه الطريق أمرها عجيب، وسرها غريب، قلما تجد أهلها متفقين، أو يثبت أحدهم للآخر قدما، أو يكون له معظما، بل ترى الغالب أن كل واحد يدعي أنه الواصل، وأن غيره ليس عنده طائل، حتى قال بعضهم: إن للقطب مائة ألف مقام واثنين وأربعين ألف درجة. وكل واحد ممن سلك مرتبة من هذه المراتب، أو مقاما من هذه المقامات، يرى أنه لم يَسْلُك أحد مقامه لقوة أنواره، وعظيم أسراره" اهــ بلفظه.

وبهذا الذي ذكرناه عن هؤلاء الأعلام، والفحول العظام، تتحقق سعة فضل مولانا الملك العلام، فيما يتحف به كل واحد من أوليائِه الكرام.

ثم لا يخفى عليك بعد التحقق بذلك، توجيه ما يظهر من اختلافهم في الطرق والمسالك، وتعلم أن منشأ ذلك الاختلاف، كما يظهر لمن سلك سبيل الإنصاف، وتجنب طريق الاعتساف، هو تباين ما يختص به كل واحد منهم في حضرته، وينفرد به عمن سواه في رتبته، من الأسرار العجيبة، والأذواق الغريبة، البارزة له من الدائرة الفضلية، على حسب القِسم الأزلية. وتعلم لا محالة أن كل واحد منهم على بينة من ربه وبصيرة فيما ينتحيه هو ومن اتبعه من المريدين الصادقين، والسالكين الموفقين، فتلحظ الجميع بعين الكمال، معتقدا أن الكل يشير إلى ذلك الجمال، فتلجُ بُحبوحة التسليم، وينسحب عليك من فضل الله تعالى ذيل ﴿مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

وإذ قد حَصَّلت على توجيه الخلاف بين مذاهبهم، وعثرت على وجه التحقيق في تباين مشاربهم، وأنه لِتَبَايُنِ ما يختصون به في مقاماتهم ومراتبهم، فينبغي أن نذكر لك بعض ما لأئمة هذا الشأن، من التقسيمات للطرق التي عليها مدار السلوك والتسليك في هذا الميدان، ليكون ما نذكره من ذلك كالأمثلة لما قدمناه من المسائل، إذ بالأمثلة تقرر الحقائق في ذهن كل طالب وسائل.

وذلك بعد أن تعلم أن الطريق إن اعتُبرت من حيث ثمرتُها المقصودة منها وهي معرفة الله تعالى، ومعرفة الآداب المطلوبة في جميع مقاماتها ومنازلها، وكذا من حيث الوسيلة المعتمدة في الأسباب الموصلة إليها وهي اتباع شريعته ﷺ فهي متحدة. وإن اعتُبرت من حيث اختلاف كيفيات اجتناء تلك الثمرة، وتنوع الوسيلة المعتبرة، فهي متعددة.

وبالنظر إلى تعددها قسمها جمع من الأئمة الكبار، وتعددت تقسيماتهم بحسب ما راعاه كل واحد في تقسيمه من الاعتبار.

فقسمها العارف السهروردي رضي الله عنه في [عوارفه] إلى طريقين، يجمعان جميع أحوال أهل التحقق بالطريق بلا مين: طريق المجذوبين المرادين، وطريق السالكين المريدين. قال: "وإليهما الإشارة بقوله تعالى ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾[2]. قال: "فقوم منهم خُصوا بالاجتباء الصِّرف، وقوم خصوا بالهداية بشرط مقدمة الإنابة". ثم بسط الكلام في تقرير كل من الطريقين بما يعلم بالوقوف عليه لمن أراده.

ومن أحسن العبارات في ذلك قول التاج بن عطاء [الله][3] رضي الله عنه في [حكمه]: "قوم تَسْبق أذكارُهم أنوارَهم، وقوم تسبق أنوارُهم أذكارَهم: ذاكر ذكر ليستنير قلبه، وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرا". فسبقية الأذكار للأنوار كما قاله ابن عباد رحمه الله تعالى: "هي حالة المريدين

---

1 – الشعراء: 89
2 – الشورى: 13
3 – في نسخة السيد المعطي بن محمد المسفيوي رحمه الله

السالكين، وذلك لأن شأنهم المجاهدة والمكابدة، فهم يأتون بالأذكار في حال تكلف منهم وتعمل ليحصل لهم بذلك زوائد الأنوار. وسبقية الأنوار للأذكار حالة المرادين المجذوبين لأنهم مقامون في السهولة والخفة. فهم لما وُوجهوا بالأنوار حصلت منهم الأذكار بلا تكلف ولا تعمل".

ومن أوضح التقريرات لهذا المعنى قول التاج بن عطاء الله أيضا في [لطائف المنن] على قول شيخه المرسى ﷺ: "الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله. قال الله تعالى ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[1] الآية"، ما نصه:

"ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من حرك الله تعالى همته لطلب الوصول إليه، فسار يطوي مهامه نفسه، وبيداء طبعه، إلى أن وصل إلى حضرة ربه. فيصدق على هذا قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2]. ومن الناس من فاجأته عناية الله تعلى من غير طلب ولا استعداد، ويشهد لذلك قوله تعالى ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[3]. فالأول حال السالكين. والثاني حال المجذوبين. فمن كان مبدؤه المعاملة، فنهايته المواصلة. ومن كان مبدؤه المواصلة، رد إلى وجود المعاملة. ولا تَظُنَنَّ أن المجذوب لا طريق له، بل له طريق طوتها له عناية الله تعالى فسلكها مسرعا عاجلا. وكثيرا ما تسمع أن السالك أتم من المجذوب، لأن السالك عرف طريقا بها تَوَصَّل إليه، والمجذوبَ ليس كذلك، وهذا بناء على أن المجذوب لا طريق له. وليس الأمر كما زعموا، فإن المجذوب طويت له الطريق ولم تطو عنه، ومن طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه، وإنما فاته متاعبها، وطول أمدها. والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى مكة، والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا".اهـ

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: "وهو حسن قل أن يوجد لغيره" اهـ.

وانظر قوله في [الحكم]: "دل بوجود آثاره على وجود أسمائه" إلخ وما قيده عليه ابن عباد رحمه الله تعالى تستفد زيادة في تقرير هذه الجملة.

وفي آخر جواب لسيدنا الشيخ ﷺ عن الآية الكريمة ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[4] الآية بعد تقريره للطريقين ، وذكره لحالة الاجتباء أمثلة تتضح بها كما هي عادته ﷺ، ما نصه: "وفي هذا يقول بعض الصوفية في سيدنا موسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام: إن سيدنا

---

1 – الشورى: **13**
2 – العنطبوت: **69**
3 – البقرة: **105**
4 – الشورى: **13**

موسى عليه السلام لما أراد الله تعالى به الارتحال إليه أمره بصيام ثلاثين يوما متصلة ليلا ونهارا، فلما كملت أنكر خُلوفَ فمه فتسوك بعود خُرنوب طلبا لزوال ما أنكره، فعاتبه الله تعالى على ذلك، وأمره بزيادة عَشْرٍ لتكمل [أربعين][1] ليلة. وأما سيدنا محمد ﷺ فلم يؤمر بشيء، وإنما كان من أمره في ذلك أن نزل عليه الملك فقال: قم، فعرج به. فَسُلِك بسيدنا موسى عليه السلام مسلك المريد السالك حيث أُمِر بتقديم السبب، وبسيدنا محمد ﷺ مسلكَ المُراد فاجْتُبِي بلا سبب، وقُرِّب بلا علة، بل بمحض الجود والكرم" اهـــ.

وهذا ساقه الشيخ رضي الله عنه كالمثال لتعقل الطريقين بعد أن قدم التصريح بأن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يذكر فيهم إلا الاجتباء، واستدل رضي الله عنه لذلك بعدة آيات قرآنية. [فتنبه][2] لذلك. ولا يذهب بك القصور إلى توهيم أهل الله تعالى وتخطئتهم، فإن لهم ألسنةً أعجميةً على غير أهلها وهي لأهلها لسان عربي مبين.

وإنما أطلت في بيان هذين الطريقين، ليكون في ذلك شرحُ ما عسى أن يُتوقَّف في فهمه مما سنذكره في شرح أبيات النظم إن شاء الله تعالى من أن أهل طريقنا هذه الأحمدية مسلوك بجميعهم طريق المرادين، وذلك أحد الوجوه التي من أجلها سُميت بالمحمدية بالمعنى الأخص كما سيبين في المطلب بعد هذا إن شاء الله تعالى.

تنبيه: قال في [العوارف] بعد تقريره الطريقين المذكورين ما نصه: "ودونهما طريقان آخران ليسا من طرق التحقق بالطريق في شيء: أحدهما: مجذوب أبتر، مَا رُدَّ إلى الاجتهاد بعد الكشف، والثاني: سالك أبتر، ما خَلَص بعد الاجتهاد إلى الكشف" اهـــ. وهذان القسمان لا اعتداد بهما في الطريق كما صرح به سيدنا الشيخ رضي الله عنه قائلا: "والاعتداد إنما هو بمجذوب متدارَك بالسلوك، وسالك متدارك بالجذب لا غير".

- وقسمها جمع من المتأخرين إلى طريقين أيضا، لكن لا بالاعتبار السابق، بل باعتبار التربية والتسليك. الطريقة الأولى: طريقة الشكر. والثانية: طريقة الرياضة ومجاهدة النفس. وربما سمى بعضُهم الأولى طريقة الشاذلي، والأخرى طريقة الغزالي. وقد تقدم لنا الكلام فيهما فيما عدا هذا من المطالب مع التنبيه على أن طريقنا طريقة شكر. ولسيدنا الشيخ رضي الله عنه في ذلك كلام نفيس فليراجع في محله من [جواهر المعاني].

---

1 - في نسخة السيد المعطي بن محمد المسفيوي رحمه الله
2 - في نسخة السيد المعطي بن محمد المسفيوي رحمه الله

وكان ﷺ يقول: "من لم يدخل في هذا الزمان من باب الشكر لا يدخل". وسيأتي لنا مزيد بيان لهذا في المطلب بعد هذا إن شاء الله تعالى.

- وقسمها الشيخ محيي الدين الحاتمي ﷺ إلى ثلاث، لا بالاعتبارين السابقين، بل باعتبار بعض المقامات، وما يَعْرِض لأصحابها من الأمارات والعلامات.

ولنورد كلامه هنا بلفظه لما اشتمل عليه من الفوائد المهمة. ونصه: "رجال الله ثلاثة لا رابع لهم":

• "رجال غلب عليهم الزهد والتبتل والأفعال الطاهرة كلها، وطهروا أيضا بواطنهم من كل صفة مذمومة قد ذمها الشرع، إلا أنهم لا يرون شيئا فوق ما هم عليه من هذه الأعمال، ولا معرفة لهم بالأحوال ولا بالمقامات والعلوم الإلهية الوهبية، ولا بالإشراق والكسوف، ولا شيئا مما يجده غيرهم. فهؤلاء يقال لهم العُبّاد. وهم إذا جاءهم أحد يطلب منهم الدعاء ينتهرونه ويقولون له: أي شيء نحن حتى ندعو لك وما منزلتنا. خوفا من أن يتطرق إليهم العُجب، وخوفا من غوائل النفس، لئلا يدخلهم الرياء في ذلك.

• "ورجال فوق هؤلاء. يرون الأفعال كلها لله تعالى وأنهم لا فعل لهم أصلا. فزال عنهم الرياء جملة واحدة. وإذا سألتهم عن شيء مما يجوزه أهل الطريق يقولون ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾[1]. وهم مثل العُباد في الجد والاجتهاد والورع والمقامات، والعلوم والأسرار والكشوفات والكرامات، فتتعلق هممهم بنيلها. فإذا نالوا شيئا من ذلك ظهروا به في العامة من الكرامات، لأنهم لا يرون غير الله، وهم أهل أخلاق وفتوة. وهذا الصنف يسمون الصوفية. وهم بالنظر لأهل الطبقة الثالثة أهل رُعونة وأصحاب نفوس. وتلامذتهم مثلهم أصحاب دعاوي، حتى إنهم ربما يُظهِرون الرياسة على رجال الله.

• والصنف الثالث: رجال لا يزيدون على الصلوات الخمس إلا الرواتب، ولا يتميزون على المؤمنين المؤدين فرائض الله بحالة زائدة يُعرَفون بها، يمشون في الأسواق، ويتكلمون مع الناس. لا يبصر أحد من خلق الله واحدا منهم يتميز عن العامة بشيء زائد على عمل مفروض أو سنة معتادة في العامة. قد انفردوا مع الله راسخين، لا يتزلزلون عن عبوديتهم مع الله طرفة عين، ولا يعرفون للرياسة طعما لاستيلاء الربوبية على قلوبهم". إلى آخر ما وصفهم به. ثم قال: "فهم أرفع الرجال مقاما، وتلامذتهم أكبر الرجال، يتقلبون في أطوار الرجولية رضي الله عنهم أجمعين".

ثم قال بعد كلام آخر فيهم: "فهم الطبقة العليا، وسادات الطريقة المثلى، ولهم علم الموازين وأداء الحقوق. وكان سلمان الفارسي ﷺ منهم بل هو من أجلهم قدرا" اهـ،

---

1 - الأنعام: **91**

وهؤلاء يقال لهم الملامتية والملامية أيضا، حسبما دل عليه كلامه فيما قبل هذا من أبواب الفتوحات المكية.

وقد كان أخونا وسيدنا الشريف الأجل، الولي الصالح، مولانا مَحمد بنُ أبي النصر العلوي، أحد الخاصة من أصحاب سيدنا الشيخ ﷺ يقول لنا مرارا: "إن أحوال غالب أهل طريقتنا جارية على أحوال الملامتية". وهو ظاهر فيما ينطبق عليه كلام الحاتمي رضي الله عنه من أوصاف أهلها. وقد صرح بذلك بعض أصحابنا، وهو من أعلام الطريقة وأركانها، في جواب له. ونص كلامه في جملة ما وصفهم به: "ولا يدعون دعوى، ولا مزية، ولا خصوصية، ولا تمييزا عن الجنس. كل ذي حرفة في حرفته، وكل ذي شغل في شغله. مع أن منهم المتصرفين في الكون بالأحوال، لا بالخواص والاستعدادات الطبيعية. فلا شك أنهم السادات الملامية الذين رئيسهم ذو الخِلال سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ وعنهم:

حَسْبِي بِهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ بَدَلاً فَهُمْ ... رُوحِي وَرَيْحَانِي وَبُرْءُ سَقَامِي
إِنِّي خَتَمْتُ عَلَى الضَّمِيرِ بِحُبِّهِمْ ... فَغَدَا هَوَاهُمْ فِيهِ زُهْرُ كِمَامِي
وَجَعَلْتُهُ حَرَماً لَهُمْ فَسِوَاهُمُ ... مَا إِنَّ لَهُ بِحِمَاهُ مِنْ إِلْمَامِ
إِنْ لاَحَ لِي مِنْ أُفْقِ مَغْنَاهُمْ سَنىً ... فَعَلَى الوُجُودِ تَحِيَّتِي وَسَلاَمِي

اهـ من الجواب المسكت:

– وقسمها الشيخ الأكبر محيي الدين الحاتمي أيضا إلى عدة طرق باعتبار آخر يفضي بنا إيراد ذلك إلى التطويل، مع أن المراد من هذه التقسيمات هو ما قدمناه من التمثيل.

– وذكر الشيخ الإمام، العالم العلامة، الراوية الرحالة، أبو سالم العياشي رحمه الله تعالى ورضي عنه في رحلته عن شيخه الشيخ أبي علي حسن بن علي العجيمي الحنفي رحمه الله تعالى أنه قسمها إلى أربعين طريقا. وذلك باعتبار ما كان موجودا في زمنه بالبلاد المشرقية وغيرها من طرق المشايخ المعتبرين في التسليك والإرشاد، الموصوفين بالتربية والترقية وإفاضة الإمداد. وذكر عن شيخه المذكور أنه أفرد تقسيمه لها برسالة استوعب فيها جميعها، وذكر فيها ما يتميز به أهل كل طريق منها. قال: [أي أبو سالم] [1]"وهي غاية في الباب، مستوعبة أتم استيعاب، ما رأيت مثلها لأحد قبله ممن سلك الطريق، وعد من أولئك الفريق". قال: "وهي دالة على سعة اطلاعه، وكثرة اعتنائه بالطريق ولقاء أهلها". إلى آخر كلامه في ذلك في رحلته.

ثم ذكر منها، أي من الرسالة المذكورة، بعض ما تمس الحاجة إليه من ذلك سرده لتلك الطرق هكذا: محمدية، أُوَيْسِية، قَلَنْدَرِية، صديقية، ملامتية، كَبْرَوِية، هَمْدَانِية، رُكْنِية، نُورِيَة،

1 – في نسخة السيد المعطي بن محمد المسفيوي رحمه الله

خَلْوَتية، مَوْلَوية، جَهْرية، بُرْهَانية، أحمرية، سَهْرُوَرْدِية، خَفِيفِية، شاذلية، وَفَائِية، زَرُّوقية، بَكْرية، جزولية، خواطرية، عبدروسية، مُشَارِعية، حاتيمة، قادرية، غُرابية، مَدْيَنِيَّة، قشيرية، رفاعية، خَرَّازية، خشنية، مدارية، شطَّارية، عِشقية، نقشبندية، غوثية، حلاجية ،جنيدية، سَهْلية اهـــ.

ومن ذلك قوله في المحمدية التي ابتدأ بها وقدمها على جميعها ما نصه: "أما المحمدية فمنسوبة إلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ. ووجه اختصاصها بالانتساب إليه، مع أن الكل راجعة إليه، ومستمدة منه، أن صاحبها، بعد تصحيح بدايته وسلوكه على منهج الاستقامة المبين في الكتاب والسنة، يشتغل بالصلاة على النبي ﷺ إلى أن تستولي محبته على قلبه، ويُخامرَ سرَّه تعظيمُه، بحيث يهتز عند سماع ذكره، ويغلب على قلبه مشاهدته، ويصير تمثاله بين عيني بصيرته. فيسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ولا يجعل لمخلوق عليه منة إلا النبي ﷺ. فيراه في اليقظة والمنام، ويسأله عما يريد". قال: "وقد سلك على هذا جماعة من المشايخ قديما وحديثا". قال الشيخ أبو سالم: "ذكر صاحب الرسالة جماعة منهم". ثم قال أعني أبا سالم رحمه الله تعالى: "قلت: وقد رأيت بالقاهرة سنة كذا بجامع المَارْدِيني الشيخَ محمد الخَلُّوتي وهو رجل مسن منقطع بالمسجد وله أصحاب. فسألته عن طريقه ولمن ينتسب فقال لي: أما أنا فطريقي محمدية لا أنتسب لأحد إلا للنبيَّ ﷺ. وذكر أنه محافظ على استحضار صورته [الشريفة][1] ﷺ في باطنه، فأغناه ذلك عن التقيد بشيخ والاستمداد منه أو كلاما من هذا" اهـــ كلامه في الرحلة.

وفي صنيع الرسالة ما يشهد لكمال ذوق صاحبها حيث قدم الكلام على هذه الطريق المنسوبة بالوجه الخاص لسيد الوجود ﷺ. وقد عرفتَ ما تميزت به الطريق المحمدية من كلام الشيخ العَجيمي، وكذا من كلام الشيخ محمد الخَلُّوتي فيما حكاه عنهما صاحب الرحلة. وبه تعلم أنها طريق شهيرة. وقد أفردها القطب السمان بالتأليف، وذكرها غير واحد من الأئمة في غير ما تصنيف.

ولغرابة علم الطريق في هذا الزمان تجد الكثير من أهل العلم وبعض المتصوفة وغيرهم من المتصلحين ينكرون وجودها، بل لا يدرون لها حقيقة أصلا، والأمر لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ومن هذه الحيثية، أي من حيثية ما عم في الوقت من الجهل بعلم الطريق، كبر في صدور كثير من الناس أمر طريقنا هذه المحمدية حتى ادعوا أنها لا شيخ لها ولا إمام، فلم يهتد إليها إلا من سبقت له العناية الأزلية لا غير. وسيأتي لنا في المطلب بعد هذا مزيد بيان وإيضاح فيما اختصت به هذه الطريقة الشريفة. نفعنا الله بها وبأسرارها بمنه وكرمه آمين.

---

1 – في نسخة السيد المعطي بن محمد المسفيوي رحمه الله

ومما ذكره في الرحلة عن شيخه صاحب الرسالة المذكورة قوله في الأويسية: "إنهم المنسوبون إلى روحانية بعض الأنبياء والمشايخ، كأخذ سيدنا أويس عن روحانية سيد المرسلين، وكأخذ أبي يزيد عن روحانية الإمام جعفر الصادق، فصار كل من أخذ عن روحانية شيخ تسمى طريقه أويسية" أهـــ.

وقد وُجدَتْ هذه الطريق في أهل طريقنا كما بلغنا أنه اتفق لبعض مشاهير الأولياء من أهل **تِشِيت**، فأَخذ عن روحانية سيدنا الشيخ ﷺ بمسجده من بلده وأجاز له بإطلاق، أخبرني بالأخذ عن روحانية الشيخ ﷺ الناظم رحمه الله تعالى. وأما الولاية فمتفق على إثباتها له ببلده، متواتر أمرها عنه. ولا نشك في وقوع ذلك لغيره أيضا ممن يكرمه الله تعالى به إذ لا غرابة فيه.

ومن ذلك أيضا ما ذكره في القَلَنْدِرية من: "أن مبنى طريقهم على حصول طيبة القلب، والتقلل من الدنيا، وترك الادخار. ومن شأنهم أنهم لا يشتغلون بترك الملذوذات من الأطعمة المباحة، ولا بالزيادة على الفرائض إذا حصلت لهم". اهـــ ما ذكره في القلندرية في الرحلة عن شيخه في رسالته المذكورة، وهو ملخص ما في [عوارف المعارف] في وصفهم.

ومن ذلك أيضا قوله في الصديقية أنها منسوبة إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه. قال: "وقد ذكرها صاحب مفتاح الفلاح" اهـــ كلامه. وهذه الطريق هي طريق الشيخ أبي بكر بن هُوَارَى كما ذكره ابن باديس في سينيته رحمه الله تعلى بقوله: "..ولابن هواري في المقامات رتبة.. إلى آخر الأبيات الخمسة. راجع السينية وشروحها.

ومن ذلك أيضا قوله في الملامتية: "إن مبنى طريقهم على الخروج من رعونات النفوس، وتطهيرها من جنابة[1] العجب والرياء وحب الجاه والرياسة، وإسقاط المترلة من قلوب الناس بأمور ينكرها العوام اهـــ.

وقد علمت ما اصطلح عليه الشيخ محيي الدين في الملامتية من كونهم أعلى طوائف أهل الطريق، فاشدد عليه يدك، ولا يَخْدِش لك في وجهه ما في [عوارف المعارف] وغيره مما يخالفه، فإن منشأ الاختلاف في [ذلك الاختلاف في][2] الاصطلاح، ومعلوم أنه لا مشاحة فيه، فافهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن ذلك قوله في الكَبْروية: "إنها منسوبة إلى الشيخ نجم الدين الكَبْري.

قال: "والهمدانية شعبة منها إلا أن أهلها يختارون الإسرار بالذكر مطلقا إلا بعد فريضة الصبح". قال: "وقد ذكر المُلاَّ جَامِي أن الشيخ علي الهمداني ساح الربع المعمور، وصحب ألفا

1ـــ أمر مؤلفه بإبقاء لفظ جنابة وقال إنه أعظم جناية لا يمكن تطهيرها إلا بشق الأنفس، المعطي بن محمد المسفيويرحمه الله.
2 – في نسخة السيد المعطي بن محمد المسفيوي رحمه الله

وأربعمائة ولي، أخذ عن كل واحد منهم ذكرا وجد ذلك الشيخ ثمرته فجمعها. ثم لما زار النبي ﷺ رآه وقد أعطاه شيئا وقال له: خذ هذه الأوراد، فرآها فإذا هي التي جمعها من مشايخه. فجعلها حينئذ وردا في الصباح وقف على بركتها كثير ممن لازمها. "وذكر صاحب الرسالة عن نفسه أنه أخذها عن بعض ذرية الشيخ الهمداني المذكور.

وذكر أيضا في الركنية [السمَّانية][1] نسبة إلى الشيخ رُكْن الدين السَّمْنَاني: "أنها شعبة من التي قبلها يعني الهمدانية.

والنُّورية نسبة إلى الشيخ نور الدين الأسْفَرَاييني، شعبة من التي قبلها أيضا كذلك.

ثم ذكر الخَلْوتية وأن مبنى طريقهم على الذكر بالكلمة الطيبة بكيفية مخصوصة، ثم ذكر الجلالة، ثم ذكر الأسماء العشرة على الترتيب: هُوَ، حَقٌّ، حَيٌّ، قَهَّارٌ، وَهَّابٌ، فَتَّاحٌ، واحدٌ، أحدٌ، صمَدٌ، قيومٌ. وتنتهي إلى الشيخ قطب الدين أحمد بن محمد الأبْهَري" اهـــ كلامه.

وهذه الطريقة هي التي سلك عليها شيخنا رضي الله عنه حتى فتح عليه بما فتح به من ملاقاته ﷺ والأخذ عنه حسبما تقدم. وسيأتي أيضا ذكر أخذه ﷺ عن شيخه الشيخ محمود الكردي المصري بسنده إلى الشيخ الأبهري المذكور، وهو عن أبي النجيب السُّهْرَوَرْدِي بسنده إلى الجنيد عن السَّري عن معروف عن داود الطائي، عن حبيب العَجَمي، عن الحسن البصري رضي الله عن جميعهم، عن مولانا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، عن النبي ﷺ، عن جبريل عليه السلام، عن رب العزة تبارك وتعالى. وانظر السند بتمامه في كتاب [جواهر المعاني].

ثم ذكر المولوية، وقال: "إنها تنسب إلى المولى جلال الدين الدَّوْسي".

والجهرية، قال: "ومبناها على الجهر بالذكر، وتنتهي إلى الخَوْجَة أحمد السَّيُّوري". قال: "وهي من سيدنا الخضر عليه السلام".

والبرهانية نسبة إلى الشيخ برهان. قال: "من شأن أهلها الجهر بالذكر ولُبْس الزي وهو الأخضر".

والأحمرية، ومن شأنهم لُبس الزي وهو الأحمر.

والسُّهْرَوَرْدِيَّة معروفة، وكذا الخفيفية. وطريق أهلها الغيبة والحضور. والشاذلية معروفة. والأربع بعدها شعبة منها.

والخواطرية مبنية على الذكر بكلمة التوحيد على كيفية مخصوصة.

والعبدروسية نسبة إلى الشيخ عبد الله بن عبدروس.

1ـــ في نسخة السيد المعطي بن محمد المسفيوي رحمه الله.

والمشارعية ومبناها على الجهر بالذكر، ومن شأنهم السماع بشروطه، ومطالعة كتب القوم وقرائتها، ولُبس الزي للدَّرُوزَة: وهو الوقوف على الناس للسؤال. ونسبتهم إلى الشيخ أحمد بن موسى المَشْرَع اليمني.

والحاتمية والقادرية منسوبتان إلى الشيخين الجليلين الحاتمي والجِيلاني والتي بعد الثانية شعبة منها.

والْمَدْيَنية للشيخ أبي مدين الغوث، وهي شعبة من القادرية أيضا. والرفاعية شعبة من القادرية أيضا. والقشيرية نسبة إلى الأستاذ، وهي معروفة. والخرازية لأبي سعيد الخراز. والخُشَنِية، فإلى قطب الدين الخُشَني. والْمَدارِية فإلى الشيخ بديع الزمان الشَاهْ مَدَارِي. والشطَّارية إلى الشيخ عبد الله الشَّطَّاري. والعِشقية تنسب إلى الشيخ أبي يزيد العِشْقِي. والنقشبندية إلى الشيخ بهاء الدين نقشبند. والغوثية خلاصة السادات الشُّطَّار. ينسبون إلى الشيخ غوث الله صاحب الجواهر الخمس.

والحلاجية معروفة، وكذا الجنيدية. والسَّهْلية إلى سهل بن عبد الله اهـ لغرض مما لخصه الشيخ أبو سالم رحمه الله تعالى من رسالة شيخه المذكور. وليراجع الرحلة من أراد الوقوف على ذلك بتمامه.

وفيما ذكرناه من هذه التقسيمات عن هؤلاء الأعلام، كفاية فيما قصدنا التمثيل به في هذا المقام.

ولاشك أن من نظر فيها، وفتح الله بصيرته لفهمها، يسلم لجميع المشايخ، ويُقِرُّ جميع طرقهم، ويعلم أن الزهر ألوان، وأن قصر الكلام على ما اقتضاه الإِلْفُ الطبيعي من أعظم أسباب الحرمان، والله المستعان، وليس إلا عليه في التوفيق التكلان.

تتمة نافعة

تكون إن شاء الله تعالى لما حُمْنا حوله في هذا المطلب كالفذلكة الجامعة.

قد عرفت من جميع ما ذكرناه في هذا المطلب أن الولاية أمر خارج عن دائرة العقل والتخمين، وأن الأولياء تُخْفى حقائقُهم وما امتازوا به من العلم بالله في بواطنهم على بعضهم بعضا فضلا عن غيرهم. فلهذا كان لا يصل إليهم إلا من جذبته جواذب العناية الإلهية، وقادته نحوهم أَزِمَّة الخصوصية الربانية. لأن الولي إذا كان لا يعرف حقيقته ولي مثله فكيف يعثر عليها من ليس له قدم فيها، مع كونه لا يرى إلا إنسانا مثله يأكل كما يأكل، ويشرب كما يشرب، ويجري عليه جميع الأعراض التي تجري عليه. هذا مما لا سبيل إليه. وإلى هذا أشار التاج بن عطاء الله بقوله في الحكم رضي الله عنه: "سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه، إلا من حيثُ الدليلُ عليه، و لم يوصِّل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه".

قال ابن عباد رحمه الله تعالى: "ولما كان الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا بالعناية والخصوصية، ويستحيل أن يكون بطلب أو سبب، كان أولياؤه المخصوصون بالقرب منه كذلك، لما خلع عليهم الخِلَع العظيمة، وتولاهم بمنته الجسيمة، واصطفاهم لنفسه، واختصهم لمحبته وأنسه، وطهر أسرارهم من أنجاس الأغيار، وصان قلوبهم بما أودع فيها من الأنوار، فكانوا لذلك ضنائنه في عباده، وخباياه في بلاده، كما قال في بعض الإشارات عنه سبحانه وتعالى: **[أوليائي تحت فنائي، لا يعرفهم أحد غيري]**. وهذا من غيرته عليهم لأن الحق تعالى أَغْيَرُ على أوليائه من أن يظهرهم إلى من لا يعرفهم. فلم يجعل لأحد دليلا عليهم إلا من حيث الدليل عليه، و لم يصول إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه. لأنه يلبسهم لباس التلبيس بين الأنام، ويظهرهم بما يُحقِّرهم في أعين الخواص والعوام، فأنى يكون لأحد دليل عليهم، أو وصول بسبب إليهم". اهـــ.

ونَقَل عن التاج أيضا أنه رحمه الله تعالى قال في [لطائف المنن]: "وسمعته، يعني شيخه الشيخ أبا العباس المرسي ﷺ، يقول: معرفة الولي أصعب من معرفتك الله، فإن الله تعالى معروف بكماله وجماله، وحتى متى تعرف مخلوقا مثلك، يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب. قال: "وإذا أراد الله أن يعرفك بولي من أوليائه، طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته" اهـــ.

وذلك لأن الولي لا يلزم من ثبوت خصوصيته، انعدام بشريته. وبيانه: أن الخصوصية هي ما يَخُصُّ الله تعالى به عبده من أوصافه العلية، ونعوته القدسية، ليغَطِّي بذلك أوصاف نفسه البشرية، ويوصّلَه إلى حضرة معارفه السنية. وهذا الستر وارد من الله تعالى على العبد من عين الجود والمنة، وليس بذاتي له. وأما البشرية فهي الأوصاف الذاتية للعبد، والأمر الذاتي يستحيل انعدامه. وإنما اللازم من ذلك السَّتر عدم غلبة ذلك الوصف على العبد بحكم الوارد الموجب لتعطيل أحكامه، لا لانقلابه وانعدامه. فإذا قُدِّر ذهاب هذا الوارد الغالب، بقي الوصف البشري الذاتي غالبا قاهرا. فمن أراد الله تعالى أن يوصله إلى أحد من أهل ولايته، أيده بأنوار عنايته، فطوى عنه أوصاف بشرية ذلك الولي الذاتية، وأشهده تلك الخصوصيةَ الواردةَ عليه من آثار النعوت الأسمائية والصفاتية، ومن لم يرد الله به ذلك عميت عليه في تلك الخصوصية الأنباء، وانطمست بينه وبينها المسالك. فافهم.

وههنا دقيقة: وهي أن كل قاصد إلى الولي من المريدين لا يرى إلا ما هو متلبس به في باطنه، لما ذكره صاحب [الذهب الإبريز] عن شيخه القطب سيدي عبد العزيز رضي الله عنه من أن "الولي الكامل يتلون على قلوب القاصدين" إلخ كلامه. فكل من قصد الولي معتقدا فيه الكمال، مصدقا بما منحه الله تعالى من سني الكرامات والأحوال، كان جزاؤه من

المولى الكبير المتعال، أن لا يريه منه إلا ما ينشرح له الصدر وينفسح به البال. وكل من قصده معتقدا فيه غير ذلك، لا يرى إلا ما يسوءه ويستهويه في الردى والمهالك، جزاء وفاقا.

وقد قال سيدنا الشيخ رضي الله عنه في جواب له عن حقيقة الشيخ الواصلِ ما نصه: "وأما التصديق للأولياء فهو أمر إلهي يضعه الله في القلب، فلا يقدر على الانفكاك عنه ولو رأى منه ألف معصية. لكن إن كان المريد صادقا فثواب صدقه أن لا يرى إلا ما يسره" إلى آخر كلامه رضي الله عنه، فليراجعه من أراده.

وليكن هذا آخر ما نورده في هذا المطلب. وبالله التوفيق، والهداية إلى سواء الطريق.

المطلب السابع

فِي بَيَانِ وَجْهِ تَسْمِيَةِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ السُّنِيَّةِ بِالأَحْمَدِيَّةِ، وَالمُحَمَّدِيَّةِ، وَالإِبْرَاهِمِيَّةِ الحَنِيفِيَّةِ

اعلم أمدنا الله وإياك بأنوار اليقين، وسلك بنا وبك مسالك الذين يؤمنون بالغيب من عباده المتقين، أن لهذه الطريقة الشريفة بين الطرق مكانةً عالية، ومرتبة قصوى سامية، وذلك لما امتاز به أهلها من الانتماء الحقيقي إلى إمام حضرة الأنبياء، وسلطان مملكة الأصفياء، إذ لا أستاذ لها إلا أستاذ الأساتيذ كلهم بالإطباق، وإمام الكل وممد الكل وسيد الكل بالإطلاق، ﷺ وعلى آله وصحبه الكرام البررة السُّبَّاق.

ولما تضمنه هذا المطلب من التحقق بوجه هذا الانتماء الفاخر، والسبب في هذا الانتساب الأخص الباهر، جعلناه كالفص لخاتم هذه المقدمة، والخاتمة لمقاصدها المهمة، رجاء أن يختم الله لنا بالتحقق بهذه النسبة الشريفة، والالتحاق بدرجة هذه الإضافة السامية المنيفة. فنقول، متبرئين من القوة والحول، مستندين إلى فضل من له المنة والطول.

أما تسميتها بالأحمدية كما عليه إطلاقات جميع أصحاب الشيخ رضي الله عنه[1] فمن وجوه

أولها: وهو الظاهر المتبادر لكل أحد، إنما سميت بذلك نسبة إلى اسم صاحبها، لأن اسمه رضي الله عنه أحمد، وهو إمامها المتلقى لها من حضرة سيد الوجود ﷺ من دون وساطة شيخ آخر، فلا إشكال عليه في تسميتها بالأحمدية.

الوجه الثاني: أنها إنما سميت بذلك لكونها طريقة شكر كما تقدمت الإشارة إليه، فلكون القطب الذي عليه مدارها هو الحمد بالوجه الأبلغ سميت أحمدية وهو ظاهر.

الوجه الثالث: كون أذكارها الدائرة عليها مشتملةً كلِّها على أبلغ المحامد إما تصريحا أو ضمنا. فمن ذلك أم القرآن، ولا شك أنها مشتملة من أسرار المحامد على ما يقصر عنه اللسان. ومن ذلك سورة القدر ومحل ذلك منها عندهم قوله تعالى ﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ**﴾[2] . ومن ذلك صلاة الفاتح لما أغلق، ولا شك أنها متضمنة للاعتراف بإنعام الله تعالى علينا بهذا النبي الفاتح الخاتم، الناصر الحق بالحق، الهادي إلى الصراط المستقيم، المخصوص عند الله تعالى بالقدر العظيم، والمقدار المفخم الجسيم، عليه وعلى آله من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم. ومن ذلك جوهرة الكمال، ومَحَالُّ ذلك منها ظاهرة: منها البرق الأسطع بمزون الأرباح المالئة إلخ. وكذلك دعاء "يا من

1ـــ (ولا ندري هل سماها الشيخ بذلك أم لا) كذا في نسخة تصحيح الفقيه المعطي بن محمد المسفيوي رحمه الله.
2 – القدر: 3-5

أظهر الجميل وستر القبيح" إلخ. وأما ما تضمنه دعاء السيفي من ذلك فمما لا يحتاج إلى بيان. فلكون أذكارها المتداوَلَة بين أصحابها دائرةً على أبلغ الحمد صريحا أو ضمنا سميت أحمدية.

الوجه الرابع: كون صاحبها هو الخاتم الأكبر، المخصوص بوراثة السر الأبهر، كما أشار إليه الشيخ محيي الدين ﷺ في حديث (**كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ**) بقوله: " أي كنت نبيا بالفعل، عالما بنبوتي، وآدم بين الماء والطين". قال: "وغيره لم يكن نبيا بالفعل، ولا عالما بنبوته، إلا عند بعثته". ثم قال: "وكذا خاتم الأولياء، كان وليا بالفعل، عالما بولايته في ذلك العالم، وغيره من الأولياء ما كان وليا بالفعل، ولا عالما بولايته، إلا بعد تحصيله ما يُشْتَرط في الاتصاف بالولاية من الأخلاق التي يتوقف الاتصاف بالولاية عليها من كون الله تعالى تسمى بالولي الحميد" اهـــ.

فعرف من هنا أن خاتم الأولياء قد سبق في حمد الله تعالى كل حامد من الأولياء، فما حمده أحد من الأولياء مثل ما حمده خاتم الأولياء، فتحقق فيه ما لم يتحقق في غيره من الإتصاف بالحمد على جهة الأبلغية، فصح اتصاف طريقه بالأحمدية.

وههنا وجوه أخر، اقتضى النظر فيها أنها مما لا ينبغي أن يسطر، لأن مدار الكلام فيها على تعقل معنى الحقيقة الكتمية، وذلك مما لا سبيل لنا إلى الوقوف منه على جَلِّيةِ القضية. على أن في هذه الوجوه التي ذكرناها غاية الكفاية للمريد الصادق، فيما يتمسك به مما يحرك همته إلى التوجه لحضرة الخالق، والإقبال عليه سبحانه بمحو العلائق والعوائق، فيستعد لتلقي أنوار المعارف والحقائق، وتنكشف له الأستار عن مخبآت تلك اللطائف والدقائق. وحسبه ذلك مما تنتجه له مطالعتها، وتفيده إياه مراجعتها. وبالله التوفيق.

وأما تسميتها بالمحمدية، (وقد قدمنا أنها من إطلاقات سيدنا رضي الله عنه عليها)[1]، فهي متعددة أيضا.

أولها: كون الطريقة المحمدية بالوجه الذي تقرر في المطلب قبل هذا من جملة الطرق التي اشتملت عليها، وهي الطريقة الثالثة من الطرق الثلاث التي انتقاها صاحب كتاب [ميزاب الرحمة الربانية] من كتاب [جواهر المعاني]، وجعل مدار السلوك في هذه الطريقة عليها. وقد أجاد وأفاد رحمه الله تعالى في بيان كيفية السلوك عليها، والتربية بها، فلينظر ذلك فيه. وقد تقدم ما للشيخ حسن العَجِيمِي في معناها من: "أن صاحبها، بعد تصحيح بدايته، وسلوكه على منهج الاستقامة المبين في الكتاب والسنة، يشتغل بالصلاة على النبي ﷺ إلى أن تستولي محبته على قلبه، ويصير تمثاله بين عيني بصيرته، فيسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ولا يجعل لمخلوق عليه منة إلا النبي ﷺ. فيراه يقظة ومناما، ويسأله عما يريد".

1ـــ هذه الجملة (وقد قدمنا أنها من إطلاقات سيدنا ﷺ عليها) ألغاها المصحح الفقيه المعطي رحمه الله.

كما تقدم أيضا قول الشيخ محمد الخَلْوَتي لمن سأله عن طريقه ولمن ينتسب: "لا أنتسب لأحد". ثم ذكر عن نفسه أنه "محافظ على استحضار صورته ﷺ في باطنه، فأغناه ذلك عن التقيد بشيخ والاستمداد منه" اهـــ.

وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني في [الأنوار القدسية] عن الشيخ أحمد الزواوي أنه كان يقول: "طريقنا أن نكثر من الصلاة عليه ﷺ حتى نصير من جلسائه، ونصحبه يقظة مثل أصحابه، ونسأله عن أمور ديننا وعن الأحاديث التي ضعفها الحفاظ عندنا، ونعمل بقوله فيها". اهـــ إلى غير ذلك من العبارات المشيرة إلى كيفية السلوك على الطريقة المحمدية.

وحاصل ذلك كله: أن القطب الذي يدور عليه السلوك في الطريقة المحمدية عندنا هو الإكثار من الصلاة والتسليم على رسول الله ﷺ، مع كون الذاكر على أحسن الحالات وأكملها: باستحضار معاني الذكر، والانتصاب إليه بقدر الاستطاعة، وكذا استحضار صورته الكريمة ﷺ في باطنه، واعتقاد أنه جالس بين يديه يستمد منه. فإن قدر على استحضار صورته ﷺ الذاتية الواردة في الأحاديث المروية عنه ﷺ فذلك أكمل وأبلغ، وإن لم يقدر فليستحضر أنه جالس بين يدي صورة نورانية، عليها ثياب من نور، في غاية ما يكون من الجلال والجمال، ونعوت الكمال. يداوم على ذلك حتى يُشْرِق في قلبه نور الصلاة عليه ﷺ، وتصير تنطبع الصورة الكريمة في ذهنه كلما تأمل في ذلك وتفكر فيه. وهذه أضعف مراتب الانطباع. ثم ينتقل منه إلى انطباع صورته الكريمة في عيني بصيرته في وقت الصلاة عليه ﷺ. ثم ينتقل منه إلى انطباع الصورة الكريمة في عيني قلبه كلما سد عينه نوما أو يقظة. ومن هذه الحالة ينتقل إلى حالة رؤيته يقظة كفاحا. وأهل هذه الحالة على قسمين: منهم من يرى في اليقظة روحه الشريفة متشكلة في صورته الشريفة. ومنهم من يرى حقيقة ذاته الشريفة وكأنه معه في حياته ﷺ. وهؤلاء هم أهل المقام الأعلى في رؤيته ﷺ.

هذا ملخص ما للمشايخ في تحقيق معنى الطريقة المحمدية بالوجه الخاص.

فالطرق وإن كانت كلها محمدية بالوجه العام، فقد اختصت عنها هذه الطريقة بهذه المزية العظيمة، والخصوصية الجسيمة، التي من أجلها اختصت بحيازة هذه النسبة الشريفة، والحلية السنية والرتبة المنيفة.

ثم اختصت طريقنا هذه الأحمدية، في هذه الطريقة المحمدية، بمزيد كرامة وتفضيل، وتخصيص لها من الملك الجليل، وذلك بكون الصلاة على النبي ﷺ فيها بالياقوتة الفريدة، وهي صلاة الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، التي لا يأتي الحصر على ما خصها الله تعالى به من المزايا الفاخرة، والأسرار الباهرة، والفضائل العديدة. وذلك حسبما أوضحه صاحب كتاب [ميزاب

الرحمة الربانية]، لما اشتملت عليه مما لم يشتمل عليه غيرها من أسرار السير والسلوك في المقامات العرفانية.

قال: "فالتقرب إلى الله تعالى بهذه الصلاة سير في مقامات الدين الثلاثة. إذ المقامات مشتملة على مواقف مُغْلَقَةِ الأبواب، وأولها باب المتاب، إلى آخر ما بعده من الأبواب. فالغلق شامل لجميعها اشتمال باب واحد، والفتح مطلوب في كلها لكل قائم وقاعد. والختم محتاج إليه في كافة عوارضها المعُادة، وإن في الختم منعا للزيادة، وغلقا بين المريد وبين موانع جادة الإفادة. وإن في النصر لَعُدَّةً لما يكون من الأعداء المذهلة، والآفات المعضلة، من الآمال الخالبة، واللوائح الكاذبة. ولقد كان المريد للهداية عند تلاطم أمواج بحار حقائق الأسرار، وللتوفيق لقطع مهامه تلك الأخطار، والاهتداء إلى الحضرة ومالها من الأنوار، في غاية الاحتياج والاضطرار. فكان الأليق بالمريد أن يتعلق بهذه الصلاة من بين كافة الصلوات على نبيه الكريم، إذ ما كل صلاة تفي بما تفي هي به في ظلمة ذلك الليل الأَلْيَل البَهِيم" اهـــ.

وانظر الطريقة الثالثة له من هذا الكتاب تستفد مزيد بيان، وتقف من أسرار هذه الصلاة على ما لا يفي بشرحه التبيان. على أن ما اشتمل عليه بالنسبة لما لم يذكر، إنما هو قل من كُثْر، ونقطة من بحر. وسنلم بالترر من ذلك عند تعرض الناظم لذكرها، والإشارة إلى شيء من مكنون سرها، إن شاء الله تعالى. وإنما مرادنا الآن أن نشير إلى ما يؤذن ببعض ما امتازت به هذه الطريقة عن غيرها بالوجه الخاص، ثم بالوجه الأخص، لتعلم من ظهور ما لها من الخصوصية في ذلك والمزية، وجهَ تسميتها بالمحمدية.

الوجه الثاني: أنه ﷺ أضاف جميع الفقراء المتمسكين بهذا العهد، المواظبين على هذا الورد، إلى سيادته السنية، ومكانته العلية، إضافة خاصة تؤذن بشرف مترلتهم، وشفوف رتبتهم عند الله تعالى. وذلك أنه قال ﷺ لسيدنا رضي الله عنه يقظة لامناما: "فقراؤك فقرائي، وتلامذك تلامذي" حسبما صح الإخبار به عنه رضي الله عنه من غير واحد من أعيان أصحابه. فكان كل من أخذ هذا الورد عن الشيخ رضي الله عنه أو عمن عنده الإذن فيه حائز لهذه الإضافة الشريفة، والنسبة المنيفة، سواء كان ممن سلك على الطريقة الثالثة من طرق [الميزاب] أو على غيرها من شعب هذه الطريقة الأحمدية، فوجب تخصيصها باسم المحمدية.

الوجه الثالث: أنه ﷺ هو الضامن لجميع ما بُشِّرَ به أهلُها من الشيخ رضي الله عنه عن أعظم الوسائل، من باهر الكرامات وسني الفضائل، كما أنه ﷺ هو القائم مقامه معهم لدى كل خطب هائل، كحضوره ﷺ موت من مات منهم على تباعد أوطانهم، وتباين بلدانهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم. وجدير لطريق امتاز أهلها بهذه المزية، أن تُخَصَّ بالتشريف بالإضافة المحمدية.

الوجه الرابع: أن لأهل هذه الطريقة علامة "يتميزون بها عن غيرهم، ويُعْرف بها أن رسول الله ﷺ هو صاحبها بوجه خاص. وهي كما قاله حَوَارِيُّ هذه الطريق، المشهود له في معرفة أسرارها بالتبريز والتحقيق: "إن كل واحد من أهلها مكتوب بين عينيه بطابع النبي ﷺ "محمد رسول الله" ﷺ، وعلى قلبه مما يلي ظهره "محمد بن عبد الله"، وعلى رأسه تاج من نور مكتوب فيه: "الطريقة التجانية، منشؤها الحقيقة المحمدية". اهــ كلامه فيما وقفنا عليه من بعض مؤلفاته.

ويؤيده ما تواتر بين الأصحاب عن جماعة من أرباب الأحوال أنهم صرحوا لبعض أهل هذه الطريق بأنهم رأوا طابع النبي ﷺ بين عينيه. وقد رأينا بعض الأصحاب إذا رأى أحدا من أهل هذه الطريق عرفه وقطع بأنه من أهلها و لم يكن رآه قبل ذلك. ولا يبعد أن يكون كشف له الغطاء عن هذا الطابع الأزهر، والسر الأبهر. ومعلوم أن مثل هذا إنما يراه من كشف الله له عن بعض أسراره الغيبية ، وأيده بأنواره الوهبية . فــلا مجــال فيه للأفكار، **إذ لا نفاق لبضاعة العقل في هذا المضمار**. وهو من جائز الكرامات التي يتحف الله بها من شاء من عباده المؤمنين الأخيار، ويختص بها من أراد من أوليائه المكرمين الأبرار. فسلم تسلم.

فكن صادقا في حبهم ومصدّقا   بأحوالهم واحذر مخالفة الشمس

الوجه الخامس: أن هذه الطريق أشبهت الملة المحمدية في كونها آخر الملل، وذلك لأنها آخر الطرق، فلا يأتي أحد بعدها بطريق جديدة، لأن سائر الطرق تدخل في طريقة الشاذلي رضي الله عنه كما تقدم عن الشيخ رضي الله عنه إلا هذه الطريقة الأحمدية، ولذلك سميت بالمحمدية.

الوجه السادس: أن هذه الطريقة تدخل على سائر الطرق فَتُبْطِلُهَا، وطابعها يترل على كل طابع، ولا يترل عليه طابع. كما أن شرع سيدنا محمد ﷺ كذلك يدخل على جميع الشرائع، ولا يدخل عليه غيره. فلما أشبهت الشريعةَ المحمدية من هذه الحيثية، قيل لها المحمدية.

الوجه السابع: أن من ترك وردا من أوراد المشايخ لأجل الدخول في هذه الطريقة المحمدية أَمَّنه الله في الدنيا والآخرة، ولا يخاف من شيء يصيبه لا من الله ورسوله ولا من شيخه أيا كان من الأحياء أو من الأموات. وأن من دخلها وتأخر عنها ودخل غيرها تحل المصائب به دنيا وأخرى، كما أن شرع رسول الله ﷺ كذلك. فمن أجل هذه الخصوصية، قيل لها المحمدية.

الوجه الثامن: أن الطرق كلها في آخر الزمان تصير إلى هذه الطريقة المحمدية، وذلك عندما تصير الطرق طريقا واحداً، والمذاهب مذهبا واحدا، على ما أخبر به أهل الكشف رضوان الله عليهم. فأشبهت أيضا الشريعة المحمدية من هذه الحيثية، فقيل لها المحمدية.

الوجه التاسع: أنه ﷺ يغار لأهلها غيرة خاصة، وأنه يؤذيه ما يؤذيهم، حسبما أخبر به الشيخ رضي الله عنه. وسيأتي بلفظه في محله من الكلام على أبيات النظم إن شاء الله تعالى. فمن أجل اختصاصهم بهذه الغيرة المصطفوية، صحت لهم النسبة المحمدية.

الوجه العاشر: أن هذا الشيخ الأكبر، لما كان هو الختم المحمدي الأشهر، الحائز لكل ما للأولياء من الكرامات الاختصاصية، كما أن رسول الله ﷺ هو الحائز لجميع ما للأنبياء والرسل من الكمالات الإلهية، سميت طريقه بالمحمدية.

الوجه الحادي عشر: أن الله تعالى بمحض فضله العميم، تفضل على أهل طريق هذا الشيخ العظيم، بأن جعل سبحانه وتعالى نسبة تضعيف حسناتهم بالنسبة إلى تضعيف حسنات غيرهم من أهل الطرق كنسبة تضعيف ثواب حسنات هذه الأمة إلى تضعيف ثواب حسنات غيرها من سائر الأمم، **وراثة محمدية حبيبية مصطفوية**. ولهذا كان من أذكارها ما تكون المرة منه تعدل عبادة سائر العارفين، ومنها ما تكون المرة منه تعدل تسبيح العالم ثلاث مرات، إلى غير ذلك مما يبهر العقول، ويعجز عن إدراك كنه حقيقته الفحول.

قال صاحب الرماح[1]: "ولا ينكر هذا إلا من ينكر وجود الأذكار الجامعة وأسرارها، ومن أنكر ذلك سقط معه البحث لأنه إنكار لما جاء به الصادق المصدوق ﷺ" اهـــ.

وفي هذا القدر الذي ذكرناه من وجوه تسمية هذه الطريقة بالمحمدية، كفاية في بساط التذكير ببعض ما اختصت به هذه الطريقة السنية، من أسرار هذه النسبة العلية.

وأما تسميتها بالإبراهيمية الحنيفية فمن وجوه:

الأول: أنها لا تكون محمدية بالوجه الأخص، إلا إذا كانت إبراهيمية حنيفية، كما يشير إليه قوله سبحانه ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾[2].

الوجه الثاني: أنها ناشئة عن الدائرة الفضلية التي منها اتخذ الله إبراهيم خليلا في الأزل قبل إيجاده وإيجاد الكون وما فيه ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ**﴾[3] الآية.

الوجه الثالث: أنها طريقة شكر كما تقدم، وقد أثنى سبحانه على إبراهيم عليه السلام بقوله ﴿**شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ**﴾[4] الآية.

1ــ "قال بعض الخاصة ممن ألف في الطريق لا ينكر إلخ" على تصحيح الفقيه المعطي بن محمد المسفيويرحمه الله.
2 – الأنعام: **161**
3 – الأنبياء: **51**
4 – النحل: **121**

الوجه الرابع: أن الله تعالى جعلها بمحض فضله وكرمه مُعلِّمَ الخير في هذا الزمان الذي هو آخر الأزمان، وألبسها ملابس طاعته في السر والإعلان، فكانت أمة وحدها قانتة لله تعالى حنيفية. وذلك من ملة إبراهيم، كما أشار إليه قوله سبحانه ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا**﴾[1] الآية. قال الشيخ محيي الدين ﵁: " والأمة: مَعُلِّم الخير، والقانت: المطيع لله في السر والعلانية".

الوجه الخامس: أن من أركان هذه الطريق إسلامَ الوجهة إلى الله تعالى الإسلام التام، والانقياد إلى كل مأمور به على الوجه الأكمل في شريعة الإسلام، وذلك من ملة إبراهيم عليه السلام ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[2] الآية. "والإسلام: الانقياد إلى الله تعالى عند كل دعاء يدعو إليه من غير توقف". قاله الشيخ محيي الدين. وانظر رسالة سيدنا ﵁ المسماة بالشافية، وغيرها من رسائله ونصائحه الكافية، تزدد تحققا بما ذكرناه، وتعثر بحمد الله تعالى على المعنى الذي رمزناه.

الوجه السادس: أن هذه الطريق لما كانت طريقة اجتباء سهلةً لا حرج فيها ولا مشقة ولا ضيق، كانت إبراهيمية حنيفية اعتبارا بما أشار إليه قوله سبحانه وتعالى ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ**﴾[3] الآية.

وقد تقدمت وصية سيد الوجود ﷺ لسيدنا ﵁ لما وقع له الفتح على يديه ﷺ، وأذن له في تربية الخلق على الإطلاق، بقوله: "الزم هذه الطريقة من غير خلوة ولا اعتزال عن الناس". إلخ انظر [جواهر المعاني].

الوجه السابع: أن من شأن السالكين على هذه الطريقة أن يغلب على أحوالهم كثرة الحلم والصبر على من يُؤذيهم ويُنَقِّصهم، وكثرة التأوه لما يشاهدون من جلال الله تعالى. فلا تجدهم يتميزون عن عامة المؤمنين بشيء مما يشير إلى الكمال، ولا يدعون لأنفسهم مع الله تعالى شيئا من المقامات والأحوال، بل ترى الغالب عليهم في كل حال، الإنابةَ إلى المولى المتكبر المتعال، المنفرد بالعزة والجلال، سبحانه وتعالى. وذلك من ملة إبراهيم عليه السلام ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ**﴾[4].

الوجه الثامن: أن من فضائل هذه الطريق، أن من دخلها وأسلم قياده إلى صاحبها بطريق المحبة الخالصة وكمال التصديق، كان من الآمنين عند الله تعالى في الدنيا والآخرة، لقول سيد الوجود ﷺ لسيدنا ﵁: "أنت من الآمنين، وكل من أحبك من الآمنين" الخ كلامه في

---

1 – النحل: **120**
2 – البقرة: **131**
3 – الحج: **78**
4 – هود: **75**

[جواهر المعاني]. وقد تقدمت الإشارة لقول سيدنا ﷺ: "من ترك وردا من أوراد المشائخ لأجل الدخول في طريقتنا هذه المحمدية أمنَّه الله في الدنيا والآخرة" الخ كلامه، وسنورده بعد إن شاء الله تعالى بتمامه. وقد قال مولانا جل علاه في حق مقام إبراهيم عليه السلام ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾[1].[2]

الوجه التاسع: أن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسكن ذريته وعياله وادي الحَرَم بلا زاد ولا راحلة، فنادى مولاه سبحانه ودعاه باسم الرب رجاء لتربية ذريته وعياله وأهله، وإيوائهم إلى جوار كرامته سبحانه وفضله، فقال فيما حكاه الله تعالى عنه في محكم وحيه، ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ...﴾[3] الآية. فكانت في ذلك إشارة إلى تربية ذريته وعياله بحقائق التوكل والرضى والتسليم. ونعمت التربية هذه. والبيت المحرم هو الذي يمنع ساكنه وقاصده من المساكنة والملاحظة والاستناد لغير الله تعالى. قاله صاحب [الرماح]، وهو على طريق أهل الإشارات كما لا يخفى.

وصاحب هذه الطريقة ﷺ وأرضاه أسكن ذريته وعياله الذين هم أهل طريقته عند بيت الله المحرم الذي لا يضيع من أوى إليه، ولا يخيب من عرج في قصده عليه، وهو سيد الوجود، وعلم الشهود ﷺ، لأنه ﷺ هو أستاذهم ومربيهم، والضامن لهم وكفيلهم ومتوليهم. وفي ذلك إشارة إلى تربيتهم بقصر النظر في استمداداهم واستناداهم عليه، وصرف الوجهة في سائر تقلباهم إليه. ونعمت التربية هذه، لأنه ﷺ هو باب الله الأعظم الذي من صُد عنه لا يجد بابا يدخل منه، والوسيلة العظمى التي من تخلف عنها لا يجد سببا يتعلق به. ورضي الله عن إمام دار الهجرة سيدنا مالك بن أنس في قوله للخليفة حين قال له: "أأستقبل القبلة وأدعو، أو أستقبل القبر الشريف" وأين تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام"[4].

الوجه العاشر: أن مدار دلالة صاحب هذه الطريق رضي الله عنه على تعلق القلب بالله تعالى، وعلى ما يوصِّل إلى ذلك. وكلامه في رسائله وأجوبته وإملاآته طافح من ذلك بما يبهر العقول، ولا يصدر إلا من أكابر الفحول.

ومن كلامه فيه ما نصه: "زبدة الأعمال الشرعية، وغاية ارتفاعها، هو التعلق بالله تعالى بلا انفصام ولا تزلزل ولو دَهمته دهمات الفتن الصعبة التي لا ينجو منها إلا بانخلاع يده من الله

---

1 – آل عمران: **97**

2ـــ قاصده وساكنه تصحيح المعطي بن محمد المسفيويرحمه الله.

3 – إبراهيم: **37**

4ـــ قال صاحب الرماح وهذا من جملة الأسرار التي من أجلها منع أهل هذه الطريق من التطفل على أبواب الشيوخ ولا يعقل ذلك إلا العالمون من أهل التمكين والرسوخ جعلنا الله منهم بمحض الفضل والكرم آمين. تصحيح المعطي بن محمد المسفيويرحمه الله.

تعالى والانفصام عنه. فهذا غاية العمل ومنتهاه" اهـــ. وذكر ﷺ لذلك أمثلة تبينه فيمن قام به. فانظر ذلك في [جواهر المعاني] إن شئت.

ومن كلامه فيه أيضا قوله لبعض من أوصاه بعد كلام أوصاه به ما نصه: "والأمر الذي لابد منه بعد هذا، وهو بداية جميع الأمور ونهايتها، هو تعلق القلب بالله تعالى بالانحياش إليه، والرجوع إليه وترك ما سواه عموما وخصوصاً... الخ كلامه. فانظره في رسائله. وسيأتي في الكلام على أبيات النظم إن شاء الله تعالى.

ومن كلامه أيضا في ذلك، بعد تقرير ما يتعلق بهذه المسألة ما نصه: "فالواجب في حق السالك أن يمسي، ويصبح، ويظل، ويبيت، وليس له مراد إلا شيئان:

الأول: الله تعالى اختيارا له من جميع الموجودات، واستغناء به عنها، وأَنَفَة من لحظها ولو لمحة، وغيرةً أن يختار سواه. وليكن الله عز وجل مبدأ مراده ومنتهاه، وأوله وآخره، ومُفْتَتَحَه ومختتَمه، مستغرقا لقصر مراده عليه فيما بين ذلك كله، حتى لا تبقى عنده لمحة يريد فيها غيره، لأن إرادة الغير إما طمع، أو عبث كما تقدم.

والثاني: من مرادات السالك: أن يكون لله تعالى خالصا من رِقِّية غيره، كامل التعلق به سرا وروحا، وعقلا ونفسا وقلبا، حتى لا تكون منه ذرة متخلفة عن الله تعالى. ويكون واقفا مع مراده عز وجل، منسلخا عن جميع الإرادات والاختيارات والتدبيرات والحظوظ والشهوات والأغراض، واقفا في ذلك كله لله بالله مع الله، لا شيء منه لنفسه ولا بنفسه ولا مع نفسه. وليكن ذلك عبودية لله تعالى من أجله، وإرادة لوجهه، وأداء لحق ربوبيته، لا ليعود عليه منه شيء، ولا يختار مع الله عز وجل شيئا، عبودية له تبارك وتعالى، لا قنوطا من خيره لأنه كفر، ويحسن ظنه به لما هو عليه من كمال الصفات المحمودة" اهـــ.

وهذا من ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لأن من كمال تعلقه بالله، وتمام إخلاص وجهته إلى مولاه، وتبرئه من التعلق بما سواه، أنه أُدرِج في المِنْجَنيق ليُرمي به في النار، فعرض له الأمين جبريل عليه السلام، بعد ما أعرض عن ملَك الرياح ومَلَك الأمطار، فقال له: "ألك حاجة فقال له: "أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى"، فقال له الأمين جبريل عليه السلام: "فسله إذن". فقال عليه الصلاة والسلام: "علمه بحالى، يغنيه عن سؤالي".

"فمن أجل كون مدار الدلالة في هذه الطريقة المحمدية، على هذه الحالة الشريفة السنية، كانت إبراهيمية حنيفية".

ويذكر عن بعض أهل هذه الطريق أنه رأى في بعض وقائعه الخضر عليه السلام فقال له: "أنا الخضر فهل من حاجة. "فقال له: "إن الله تعالى أغناني عنك وعن غيرك من الأولياء

بشيخي ووسيلتي إلى ربي سيدي أحمد التجاني ﷺ". فلاشك أن مشرب صاحب هذه الحال إبراهيمي، وفيه مع ذلك امتحان كبير لمن وقع له ذلك كما لا يخفى.

ووراء هذه الوجوه التي ذكرناها لهذه النسبة الجليلة القدر، والإضافة السنية الفخر، مالا يسعنا الآن شرحه واستيفاؤه، ولا يمكننا في هذه العجالة بسطه واستقصاؤه، على أن هذا التقييد ليس موضوعا لذلك، كما أن مقيده ليس أهلا لخوض هاتيك المسالك.

وليكن هذا آخر ما قصدنا إبداعه في هذه المقدمة، وأردنا إيراده من مطالبها المهمة[1].

1ـــ "ما أردنا إيراده في هذه المقدة وقصدنا إيداعه مطالبها إلخ" تصحيح المعطي بن محمد المسفيوي رحمه الله